الله

# مِنْ كَلَامِ العَارِفِينَ

العدد الثاني

بإذن من سيدي الحاج الحبيب بن حامد رضي الله عنه قام بعض تلاميذه بكتابة هذا التأليف استنادا لما تم تسجيله وجمعه ونقله من العامية إلى الفصحى من دروسه التربوية وكلماته ورسائله العرفانية والله من وراء القصد.

كل الحقوق محفوظة

الزاوية التجانية باب الخضراء ©

## تمهيد

بسم الله والحمد لله والصّلاة على رسول الله ﷺ.

قال ﷺ: " **لاَ بَأْسَ بِالحَدِيثِ قَدَّمْتَ فِيهِ أَوْ أخَّرْتَ، إِذَا أَصَبْتَ مَعْنَاهُ**"

الجامع الصغير رقم 9706

قال سيدي الحاج علي حرازم رضي الله عنه: "...وأرغب لمن طالع مكتوبنا هذا أن يغضّ عنه عين الانتقاد ويسمح لنا ما يلقاه من التّصحيف والتّحريف والزّيادة والتّطفيف ويصلح ما وجد فيه من الخلل ويقابل جهلنا بالصّفح والإغضاء وحسن العمل فإنّا لسنا من أهل العلم ودرايته ولا من أهل النّحو وصناعته وإنّما حملنا على ذلك شدّة حبّنا في أهل هذا الجناب وتعلّقنا بهؤلاء الأحباب ومن أقام لنفسه عذرا سقط عنه اللّوم" ...

**من مقدمة كتاب**

**جواهر المعاني وبلوغ الأماني**

**في فيض سيدي أبي العباس التجاني**

نسخة من خط سيدي الحاج الأحسن البعقيلي وفيها الإجازة الأولى التي بعث بها لسيدي محمد القماري رضي الله عن الجميع

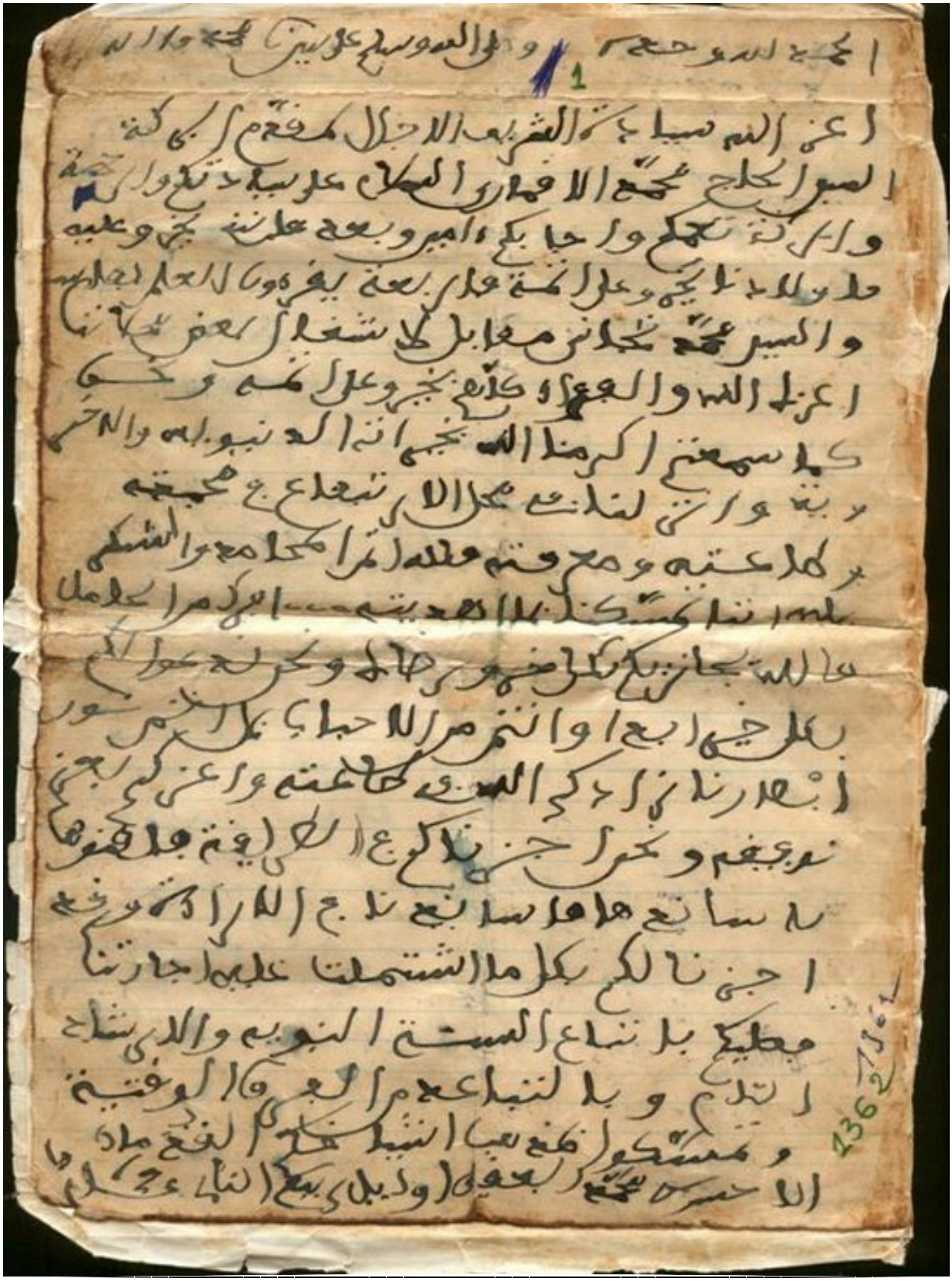

# الإجازة رقم 1

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله في تاريخ خامس صفر عـام 1352

الحمد لله وحده أعز الله سيادة الأعز الأبرك المقدم الأبر السيد الحاج محمد بن ابراهيم الأقماري السلام عليكم والرحمه والبركه وبعد فالله الكريم يفيض عليكم خير الدنيا والآخرة ويوصلكم إلى منتهى العارفين وذروة المقربين آمين يليه أن حالنا على أتم الأحوال فالله تعالى يرتضيها فلله الحمد والمنه أعظم الله علينا نعمه ظاهرة وباطنه وأعظمها الشكر والسيد محمد الكبير يقرأ العلم مفتوح له فيه والسيد محمد الكبير جامع للقرآن والبنون والبنات حافظون للقرآن الكريم ونساؤنا بخير كأحبابنا وأنت واحد من أولادنا فقرّ به عينا و لا تظن غيره وقد وصلنا

أخونا علي رسولك بهانه ريال وعنبر وتسابيح هديه لنا ولولدنا فهي مقبوله بغايه ربانيه مصحوبه بعز معها والمطبعه بخير وأحوالنا كلها كما تحبها ونحن ندعوا لكم بخير والسيد عبد الله أخوكم بخير عند البروزي له أولاد والسيد محمد نسمع عليه خيرا وأحوال البلد بخير في أمان ورفاهيه دينا ودنيا لا تنشوش وقد اشتقنا لرؤيتكم فبأحبابكم هنا كلها بخير والسيد محمد الحبيبه ابن شيخنا برباط الفتح في مدرسه جسوس خادما معه والسيد محمد بن المولى علال نازل عندنا حالته بخير ولازالته الخيرات تنصب علينا كالأمطار فلله الحمد علما وطريقة و حقيقه فأخبركم على عادة الأحباب فأنتم أولاد الروح وقد أجزنا لكم في مروياتنا في الطريقه وغيره فالله يحفظكم آمين

الحاج الأحسن بن محمد ابن أبي جماعه البعقيلي السوسي .

البيضاوي بدرب خلف الدار البيضاء

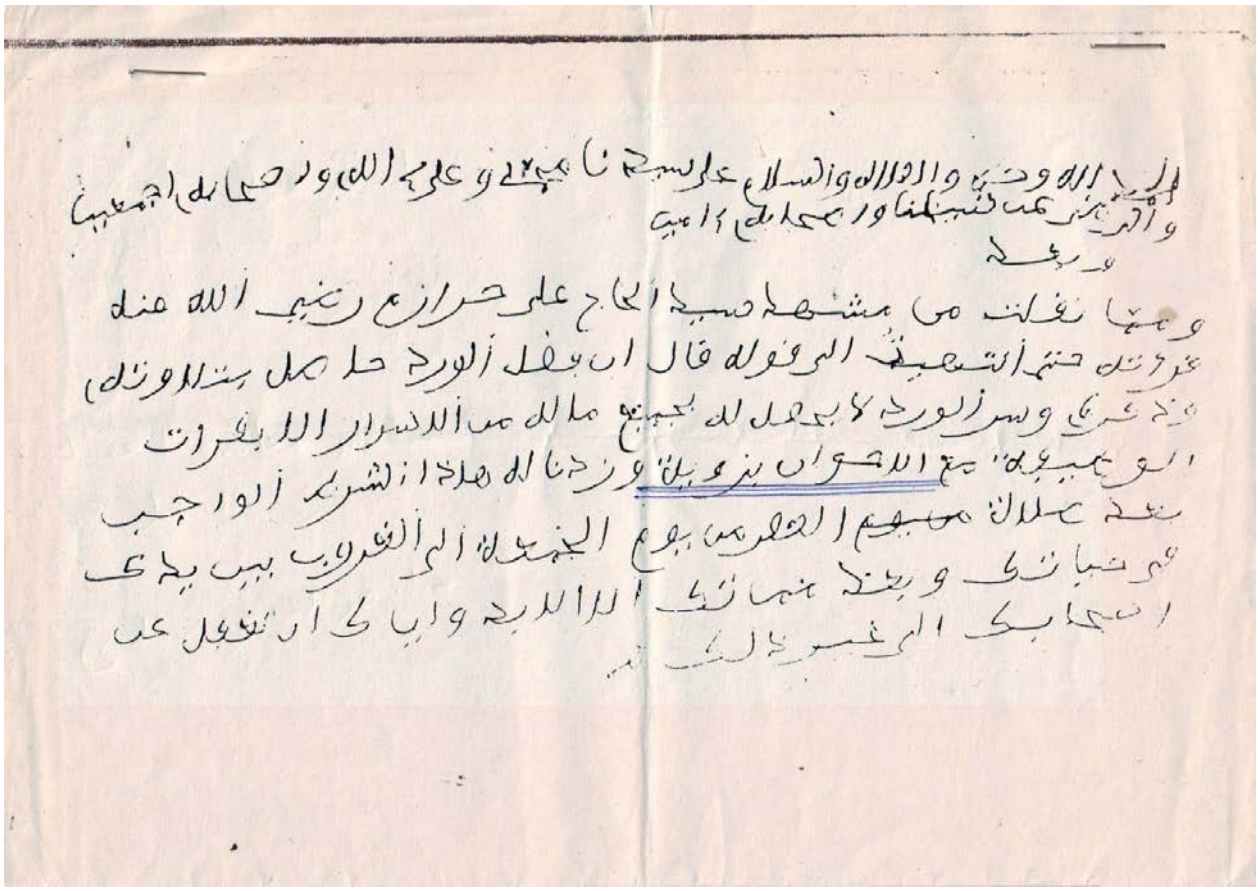

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والرضى عن شيخنا والصحابة أجمعين

وبعد، وممّا نقلت من مشاهد سيدي الحاج علي حرازم رضي الله عنه قرأته حتى انتهيت إلى قوله قال إن فضل الورد حاصل بتلاوته وذكره وسر الورد لا يحصل له بجميع ما له من الأسرار إلا بقراءة الوظيفة مع الإخوان بالزاوية وزدنا له هذا الشرط الواجب بعد صلاة العصر من يوم الجمعة إلى الغروب بين يدي في حياتك وبعد مماتك إلى الأبد وإياك أن تغفل عن أصحابك إلى غير ذلك ...

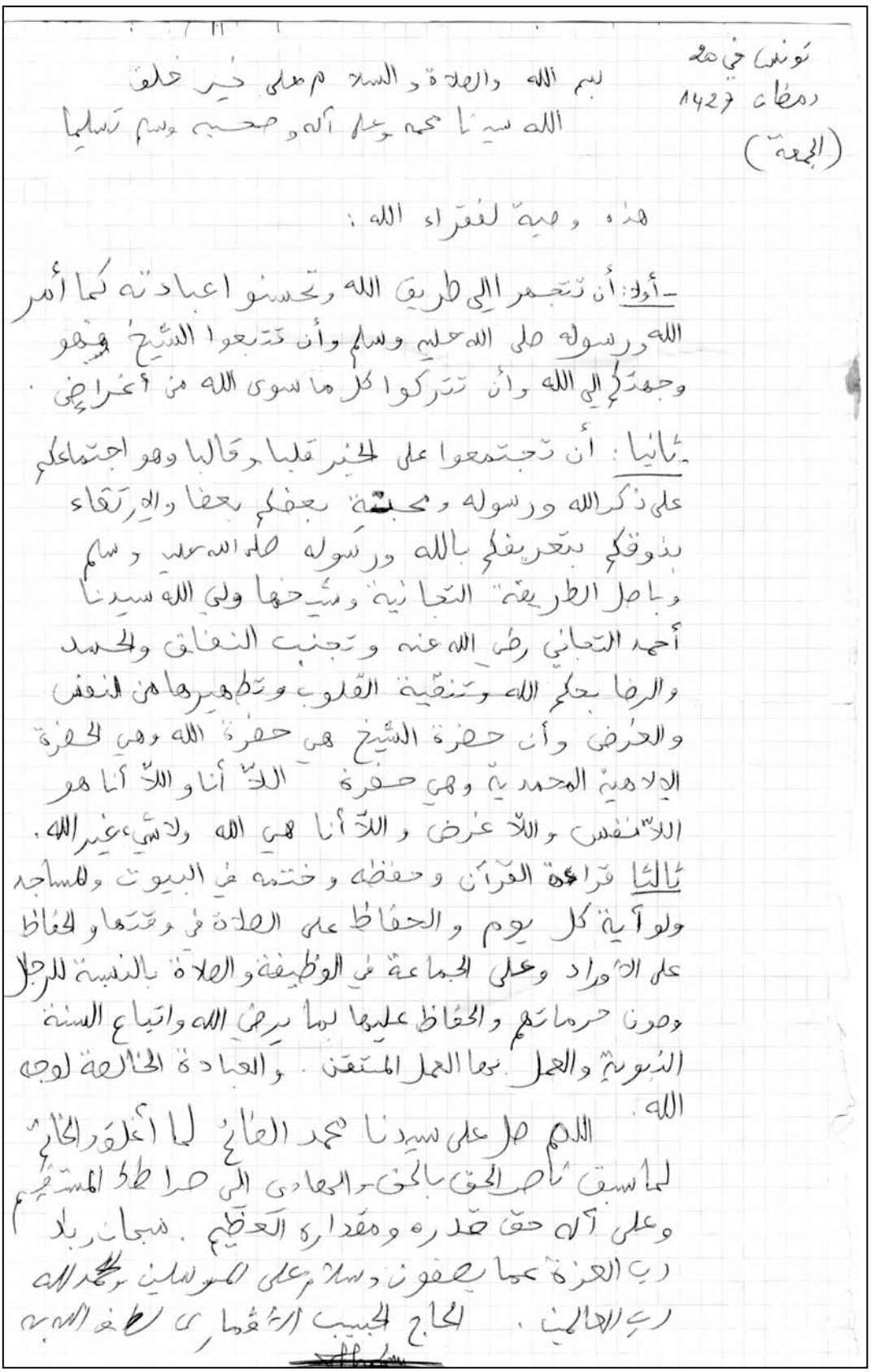

تونس في ٥ رمضان ١٤٢٦ (الجمعة)

بسم الله والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

هذه وصية لفقراء الله:

-أولا: أن تتجمعوا إلى طريق الله وتحسنوا عبادته كما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأن تتبعوا الشيخ وهو وجهتكم إلى الله وأن تتركوا كل ما سوى الله من أغراض.

-ثانيا: أن تجتمعوا على الخير قلبا وقالبا وهو اجتماعكم على ذكر الله ورسوله ومحبة بعضكم بعضا والارتقاء بذوقكم بتعريفكم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وباصل الطريقة التجانية وشيخها ولي الله سيدنا أحمد التجاني رضي الله عنه وتجنب النفاق والحسد والرضا بحكم الله وتنقية القلوب وتطهيرها من النفس والعرض وأن حضرة الشيخ هي حضرة الله وهي الحضرة الإلهية المحمدية وهي حضرة اللا أنا واللا أنا هو اللا نفس واللا عرض واللا أنا هي الله ولا شيء غير الله.

-ثالثا قراءة القرآن وحفظه وختمه في البيوت والمساجد ولو آية كل يوم والحفاظ على الصلاة في وقتها والحفاظ على الأوراد وعلى الجماعة في الوظيفة والصلاة بالنسبة للرجل ودون حرماتهم والحفاظ عليها بما يرضي الله واتباع السنة النبوية والعمل بها العمل المتقن. والعبادة الخالصة لوجه الله.

اللهم صل على سيدنا محمد الخاتم لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. الحاج الحبيب الشماري خادم الطريقة

تونس في 20 رمضان 1427 (الجمعة)

بسم الله والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . هذه وصية لفقراء الله:

- أولا : أن تتجهوا إلى طريق الله وتحسنوا عبادته كما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأن تتبعوا الشيخ فهو وجهتكم إلى الله وأن تتركوا كل ما سوى الله من أغراض

- ثانيا : أن تجتمعوا على الخير قلبا وقالبا وهو اجتماعكم على ذكر الله ورسوله ومحبة بعضكم بعضا والارتقاء بذوقكم بتعريفكم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبأصل الطريقة التجانية وشيخها ولي الله سيدنا أحمد التجاني وتجنب النفاق.

والحمد والرضا بحكم الله وتنقية القلوب وتطهيرها من النفس والغرض وأن حضرة الشيخ هي حضرة الله وهي الحضرة الإلاهية المحمدية وهي حضرة اللا أنا واللا أنا هو اللا نفس واللا غرض، واللاّ أنا هي الله ولا شيء غير الله.

- ثالثا : قراءة القرآن وحفظه في البيوت والمساجد ولو آية كل يوم والحفاظ على الصلاة في وقتها والحفاظ على الأوراد وعلى الجماعة في الوظيفة والصلاة بالنسبة للرجال وصون حرماتهم والحفاظ عليها بما يرضي الله واتباع السنة النبوية والعمل بها العمل المتقن والعبادة الخالصة لوجه الله

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

الحاج الحبيب الأقماري لطف الله به

# فهرس الجزء الثاني من سلسلة: (مِنْ كَلَامِ العَارِفِينَ)


| عنوان الدرس | الصفحة |
|---|---|
| تَجْدِيدُ الدِّينِ | 10 |
| مِمَّا رُوِيَ عَنِ الشَّيْخ القمار رضي الله عنه | 12 |
| نَسَبُ الرَّسُول ﷺ | 30 |
| حُسْنُ الظَنِّ بِاللهِ تَعَالَى | 41 |
| الِاسْتِغْفَارُ ثَلَاثٌ | 55 |
| الإِمَامُ مَالِكٌ ابْنُ أَنَسٍ | 63 |
| بَابُ هَذِهِ الأَبْيَاتِ هُوَ أَعْظَمُ البَيَانِ | 83 |
| الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ | 97 |

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

# تَجْدِيدُ الدِّينِ

البيان: اسمعوا ما قاله سيدي الحاج الثمار ﵁:

"الحمد لله وحده والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، إنّني بحمد الله كلّ يوم أجدّد الدّين لكلّ من اعترف بالرّبوبيّة جلّ وعلا، وأقرّ بنبوّته ورسالته ﷺ، في كلّ صباح أقول: اللّهم إنّي أشهدك وأنبيائك ورسلك وملائكتك بأنّني أجدّد الإسلام لجميع المسلمين، أقول اللّهم إنّي أجدّد الإسلام لجميع الموحّدين من أمّة سيّدنا محمّد لي ولهم، أقوله كلّ يوم ثلاثة بعد صلاة الصّبح، وكذلك الطّريقة بعد صلاة الصّبح، أقول اللّهم إنّي أجدّد الطّريقة التّجانيّة لكلّ من قبل شروطها المقرّرة في جواهر المعاني والإراءة وبغية المستفيد، وكما أنّي أهدي ثواب صلاة الفاتح لجميع ما خلقه الله خمسة عشر مرّة في كلّ يوم بعد صلاة الصّبح أيضا، وأقول لكلّ مؤمن إنّ أجل الله قريب، والسّلام، محمّد بن إبراهيم"، هذه عن خلافته عن الله تعالى، ﵁ وأرضاه، وبعدها مباشرة يقول ﵁: "وأوصيكم وإيّاي بالصّلاة في وقتها".

"وأوصيكم وإيّاي بالصّلاة في وقتها"، كأنّ الصّلاة في وقتها أصبحت عنده ﵁ وأرضاه أعظم من جميع القطبانيّات، وهو كذلك، فإذا الإنسان تنفّس هذا النّفَس وتأمّل فيه بصفاء وصدق ومحبّة، وجعل قلبه مع كلّ ما يكون منه فإنّه تنفتح له بواطن الفهوم، وليس ما عنده الآن فقط وإنّما هي فتوح فوق فتوح فوق فتوح، يستمدّها من نفْس العين، وقال لي ﵁، أي للعبد الحقير، قال: "فأرى جميع

المسلمين يدخلون في **ڤلبي**"، وقد قال "**ڤلبي**"، وليس قلبي، ثمّ قالﷺ: "وأنا كذلك أدخل معهم في **ڤلبي**"، وكأنّه يدخُل آخرهم والله أعلم، هو لم يقل ذلك ولكنّي فهمت والله أعلم أنّه يدخِلهم جميعا ثمّ يَدخُل معهم، ثمّ قال لي ﷺ: "أجدّد للفقراء في مشارق الأرض ومغاربها والمجدّدون كثير"، وذلك شأنه ﷺ فيبوح بأمر ويستره بأمر آخر، لشدّة تورّعه في هذا الباب وخوفه من الله تعالى، ﷺ وأرضاه، ولعِظَم نفَسه في المعرفة بالله تعالى، فيتبرّأ من كلّ حول وقوّة، ولكن لابدّ لأسرار الشّيخ أن تخرج، فلابدّ له أن يقول كلّ ذلك ثمّ بعد أن يقوله يغطّيه، فقال: "أجدّد للفقراء في مشارق الأرض ومغاربها والمجدّدون كثير"، وفعلا المجدّدون كثير، وسيدي الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ وأرضاه كان يجدّد الطّريقة لكلّ من قَبِل الشّروط في كلّ وقت سحر، فالحمد لله أنّهم يجدّدون لنا ديننا، اللّهم لك الحمد.

بحمد الله تعالى.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

## مِمَّا رُوِيَ عَنِ الشَّيْخِ القمار رضي الله عنه

البيان: هذه مناسبة نجتمع فيها على ذكره ﷻ، ونتبرّك بأنفاس الصّالحين ساداتنا وأشياخنا رضي الله عنهم، ونَفَسٌ واحد فقط يكفينا، فالتّذكّر هو في حدّ ذاته معرفة، وقد طلبتُ من كثير من الإخوان أن يدوّنوا ما يتذكّرونه عن سيدي الحاج القمار رضي الله عنه، لأنّي كنت كلّما حدّثني بشيء أدوّنه، وهو رضي الله عنه يقول لي: "لا تكتب شيئا، فسيدي الحاج الأحسن رضي الله عنه قد قال كلّ ما يجب أن يقال، وأنا ليس لي شيء في هذا الباب"، ولكنّي كنت أكتب وأقول: "ربّ اغفر لي، وعسى أن يسامحني الشّيخ رضي الله عنه"، ولكنّه رضي الله عنه في آخر عمره قال لي: "**إذا كتبتَ كتابا فقُل: قال فلان كذا وكذا**" أي أنّه أذِنني رضي الله عنه في هذا الباب، وقد استأذنته مرّة في مرويّاته، فقلت له: "سيدي أتأذن لي في مرويّاتك؟"، فقال رضي الله عنه: "أنت مأذون"، وهذا ما حصل له تماما مع سيدي الحاج الأحسن البعقيلي رضي الله عنه حين استأذنه فقال له: "أنت مأذون"، أي أنّه أذنني في مرويّاته رضي الله عنه، وهي ما رواه بلسانه من أمور الطريقة والعلم والتّربية إلخ، وقد وضعتُ الخطوط العريضة وقمت بتحرير بعض النّقاط، وربّما إذا قدم سيدي محمّد الكبير البعقيلي رضي الله عنه إلى تونس، لأنّه يريد أن يزور تونس، فَهُم في المغرب الأقصى قد اشتاقوا كلّهم إلى الفقراء، وإلى تلامذة سيدي الحاج القمار رضي الله عنه وإلى الزاوية وإلى جامع الزّيتونة وإلى الأحباب، فربّما إذا سافر لأداء العمرة قد يمرّ

بتونس يوما أو يومين، فنحاول أن نقدّم له شيئا، ولكم بين أيديكم عام بأكمله، فكلّ مسألة تتذكّرها وقد صارت لك معاينة، أي مباشرة مع الشّيخ القمار ﷺ، فاكتبها كما هي، فإنّما هي علم، لأنّ أحوال العارف كلّها علم، والعارفون والمربّون إنّما يربّون بأحوال المشائخ الكمّال ﷺ، وتلك هي التّربية، بأحوال وأذواق وفهوم المشائخ الكمّال ﷺ، وكلّ مسألة سمعناها منه قد تظهر لك أنّها بسيطة ولكنّها في الحقيقة بحر من العلم، وخاصّة إذا كانت مع الإذن ومع الفهم فإنّها تكون بحرا لا قاع له، هذا بالنسبة لمن عرف سيدي الحاج القمار ﷺ وأما بالنّسبة لمن لا يعرفه وخاصّة من الإخوان الحديثي العهد بالطريقة والحاضرين معنا اليوم، فنقول لهم بضع كلمات للتّذكير فقط.

الشّيخ سيدي محمد القمار ﷺ هو تلميذ سيّدنا ومولانا الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ، استقر بتونس وأحيا الطريقة التّجانيّة بعدما أشرفت على الاضمحلال أو اضمحلّت، وكان سيّدنا الحاج الأحسن ﷺ شديد الاعتناء به والمحبّة له، وكان سيدي الحاج القمار ﷺ يحدّثنا بأنّ سيّدنا الحاج الأحسن ﷺ كان في كلّ صغيرة وكبيرة من شؤون الزّاوية يقول: "اذهبوا لسي القمار"، حتّى أنّه في مرّة من المرّات بعث "للّى زهرة" رضي الله عنها وأرضاها، وهي زوجة سيدي الحاج الأحسن ﷺ، بعث بها إلى الشّيخ القمار ﷺ ليكتب لها رقية تتداوى بها، وهذه مسألة عظيمة جدّا، وكان كذلك سيدي محمّد الحبيب ﷺ وهو ابن سيدي الحاج الأحسن وخليفته ﷺ، كان إذا دخل للزّاوية ورأى جميع الفقراء جالسين ومعهم والده وسيدي الحاج القمار ﷺ، فترى الفقراء ينادونه محبّة فيه، فلا تسمع إلاّ "سيدي محمّد، سيدي محمّد"، ومع ذلك فلا يلتفت إلى أحد منهم، بل ينطلق إلى حجر أبيه سيدي الحاج الأحسن ﷺ فيبقى عنده قليلا، ثمّ مباشرة ينتقل إلى حجر سيدي الحاج القمار ﷺ ولا يتحرّك بعدها من مكانه، وهذه من الكرامات

والإشارات العظمى، ولذلك يقول سيدي الحاج القمار ﷺ: "عندي بدأ تعلّم الحروف"، أي هو من بدأ بتعليمه الحروف.

وهو سيدي محمّد الحبيب ﷺ وما أدراك، فهو من الأقطاب الكمّال والمربّين العالين جدّا في الطريقة، ناهيك عن إجازته، فقد أفاض عليه سيدي الحاج الأحسن ﷺ جميع ما عنده في جميع الحضرات في نَفَس واحد، وأفاض عليه كلّ ما شربه وكلّ ما أخذه من ذات رسول الله ﷺ ومن ذات الشّيخ التّجاني ﷺ في نَفَس واحد، ومن عرف ذلك فقد عرفه ومن لم يعرفه فيبقى يتساءل: كيف يكون ذلك؟، وهو سيدي محمّد الحبيب ﷺ وما أدراك، العالم العلاّمة النّاسك الفهّامة الدرّاكة الرّجل العظيم وليّ الله، ففي زمانه وفي دياره وحتّى في أقرباءه من يقول: كيف يكون هذا؟، سيدي الحاج الأحسن ﷺ انتقل وليس هنالك من يستطيع أن يخلفه، ومع ذلك فقد خلف أباه وزيد له عشرون مقاما في القطبانيّة، وقد فتح كثيرا من الزّواوي وجعل الله تربيته في نفس المنهج والأدب، وخليفته سيدي محمّد الكبير ﷺ على نفس النهج وهو قائم بمجهود عظيم في الطّريقة التّجانيّة أيضا، ﷺ وأرضاه، وهذا ليس أمرا غريبا في سندنا، ولله الحمد، فسندنا سند قويّ جدا ولله الحمد.

وحاصل القول أنّ سيدي الحاج الأحسن ﷺ كان في كلّ مسألة يقول "اذهبوا لسي القمار"، حتّى أنّ الزاوية الّتي في "درب غلّف" كان قد اشتراها سيدي الحاج القمار ﷺ بأمر من سيدي الحاج الأحسن ﷺ، وقد أمره بأن يبيع أكرمكم الله البغلة التي لديه ليتمم بثمنها شراء الزاوية.

ولم يظهر سيدي الحاج القمار ﷺ، ففي تونس كان هنالك كثير من العلماء والمقدّمين الأكابر في الطريقة، وهم أناس أجلاّء ﷺ، لكنّه لم يظهر نفسه حتّى جاءه الإذن، وقد كان يحدّثني عنهم، كسيدي "بن ميلاد" وغيره، وكان ﷺ يثني الثّناء العظيم على سيدي الصّادق الرّياحي ﷺ، وقال فيه أنّه من أكابر العارفين

بالله تعالى، إذ كانت بينهما صحبة، وكانا يحبّان بعضهما محبّة عظيمة جدّا، وبينهما توقير وتعظيم نهايةً في التّجرّد من النّفس، ولذلك كانا في اطمئنان وتعايش عظيمين جدّا، ﷺ، وكان سيدي الصادق ﷺ يخجّله كثيرا بقوله للفقراء: "أنتم لا تعرفون شيئا، والمغاربة أفضل منكم بكثير"، فيخجل الشّيخ القمار ﷺ من قوله ذاك لأنّه قاله على رؤوس الأشهاد، وإنّما قال ذلك لأنّ سيدي الصادق ﷺ هو من أكابر أهل الفتح، وكما قلنا فسيدي الحاج القمار ﷺ لم يَظهر حتّى أظهره الله، وقد شمّر عن ساق الجدّ في القيام بأمر الله تعالى حتّى جعل له الفقراء إجازة من عند "أولاد السائحي" بسند مولانا الحاج "علي بن عيسى التّماسيني"، ﷺ وأرضاه، لكنّ الشّيخ القمار ﷺ غضب غضبا شديدا، ومباشرة اشتكاهم إلى سيدي الحاج الأحسن ﷺ، وقال: "لم أطلب منهم إجازة، ولا حاجة لي بأيّ شيء، وهم تصرّفوا من تلقاء أنفسهم"، ومع أنّه سند صحيح، ولكن هذا ما قاله، وقد غضب غضبا شديدا، فما كان من سيدي الحاج الأحسن ﷺ إلاّ أن بعث له بخمس رسائل هي في نفس الوقت إجازات في الطريقة، و كلّكم تقريبا تعرفونها، وقد جعلنا منها نسخا رقميّة وممسوحة ضوئيّا، وأعطينا بعض هذه النّسخ حين كنّا في ملتقى فاس إلى أولاد سيدي الحاج الأحسن ﷺ وإلى بعض الفقراء، وقد طلبها منّا بعض المقدّمين الأكابر هناك، وذلك حين فتح الله وقلنا ببركاتكم كلمة في هذا الملتقى، وقد اهتزّ لها المغرب كلّه، من أوّله إلى آخره، وإنّما نحن ضعفاء ولكنّ ذلك ببركاتكم وببركة سيدي الحاج القمار ﷺ، فنحن ضعاف ولكن هكذا أراد الله ﷻ، وذلك بحضور مقدّمين لا تستطيع مجالسة أحدهم من شدّة النّور السّاطع من وجهه، ولكن ببركة ذلك الرّجل العظيم ﷺ وأرضاه، حتّى أصبح يقال "هذا هو التّونسي ولد الفقيه"، وذلك لأنّنا تحدّثنا فيها عن محبّة سيدي الأحسن ﷺ لسيدي الحاج القمار ﷺ، وكيف أخذ عنه التّربية وماذا صنع بعد ذلك، وكلّهم تأثّروا بتلك الكلمة حتّى المقدّمين الأكابر منهم، ويقولون: "أثلجت صدورنا، وعسى الله أن يفرحك كما قد

أفرحتنا"، والزّاوية كلّها اهتزّت، لماذا؟، لأنّهم يحسّون شدة القرب ويحسون ذلك الأمر حيّا في صدورهم، وليس مجرّد كلام من قبيل قال فلان وقال عِلاّن، فكأنّ سيدي الحاج الأحسن ﵁ قد بُعث بينهم من جديد، ويسمعون أيضا عن سيدي الحاج القمار ﵁، وقد أخذ كما قلنا بعض المقدّمين الأكابر نسخا من إجازاته ﵁، وكذلك سيدي محمّد الكبير ﵁ الّذي قرأ على الفقراء إجازات سيدي الحاج الأحسن ﵁، وقال: هذا من العلم، كما وقد قرأ الموضع الّذي فيه "... والسيّد محمّد الكبير يقرأ العلم مفتوحا له فيه، والسيّد محمّد الكبير حافظ للقرآن ..." إلخ، وسيدي محمّد الكبير ﵁ كلّما ذهبنا لزيارته إلاّ ويقول لي "كأنّك ولدنا الّذي بقينا مدّة لم نره"، ويعانقني بعدها، فيخجلني ذلك أمام الفقراء، فهو سيدي محمّد الكبير ﵁ وأرضاه وما أدراك من هو، وبكلّ تواضع، وإنّما هذا ببركة أنفاسكم، وهذا الأمر يعرفه الفقراء الّذين زاروه هناك، كسيدي خالد محمّد القمار ﵁ والعديد من الإخوان، فتراه ينتظر الفرصة تلو الفرصة ليرى تلامذة الشّيخ القمار ﵁، فيراه هو فيهم، وهذا عارف بالله ولا مجال للّعب في هذه المسائل، فإذا ما تحرّكت جفون عينيك أمام عارف ولو برهة من الزّمن، فإنّه يحيط بك بكلّيتك وبعمرك الّذي مضى والّذي سيأتي، وذلك لدقائق الفتح الرّباني الّذي يكون عند العارفين، فنسأل الله أن يسترنا معهم، لأنّ هذا خطر للغاية، وهذا ليس مجرّد فتح كما نسمع به نحن أو كما عرفناه، فسيدي الحاج القمار ﵁ قد تراه ينظر إلى الأرض فتظنّه لا يراك، وهو في الحقيقة يراك منذ كنت في النّور المحمّدي تصلّي على النبيّ ﷺ بصلاة الفاتح لما أغلق، فخذوا حذركم من هذه النقطة بالذّات، إذ لا مجال للهزل هنا، ولو يظهر لك أنّه بشر ككلّ البشر، فنسأل الله أن يستر عيوبنا معهم، ولو لا أنّهم هم الممسكون بزمام أمورنا وبمحبّة منهم ﵁ لاختلف الأمر، فسيدي محمّد الكبير ﵁ إنّما يشرب خصوصيّة سيدي محمّد القمار ﵁ من تلاميذه، وإن كان في بعض الأحيان يفاجئنا بمسألة نظنّ معها أنّه قد عاش معه آلاف السنين، وفي مجلسه ﵁

تراه يسأل فقراءه وتلاميذه "هل رأيتم سي الحبيب؟ هل سلّمتم على سي الحبيب؟"، وإذا ما قلتُ كلمة في مجلسه فإنّه يقول لهم "أتسمعون ما يقوله سي الحبيب، أتفهمونه؟"، وهو لا يتكلّم ﷺ، كعادة سيدي الحاج القمار ﷺ تماما، إنّما يلبس حلّة الشّرع، وهو لم يتصرّف بهذه الكيفيّة إلاّ لكون المسألة مسألة عظيمة جدّا، ثمّ يقول ﷺ: "سبحان الله، العين إذا سقت، إنّما تسقي القاصي أكثر من الداني"[1]، يقولها أمامهم جميعا، ثمّ يحجم عن الكلام ويفسح لي المجال لأتكلّم، ثمّ عندما رأى سيدي خالد محمّد القمار ﷺ قال للفقراء: "**أترون سي خالد، هذا ابن الفقيه، وهو خليفة، خليفة في الأرض خليفة في السّماء خليفة في الشّرق خليفة في الغرب**"، فزُلزلت قلوبنا بكلامه ﷺ، فالوقوف أمام عارف بالله هو قمّة الخطر، وخاصة إذا أشار لك إشارة فإيّاك أن تتناساها أو تتجاهلها ظنّا منك أنّها إنّما وافقت ما في ذهنك لمجرّد الصدفة لا غير، لأنّه يعرف دقائق دقائقك، ودائما ما يقول للفقراء "هل بينكم من له سؤال يسأله لسي الحبيب؟، من يريد منكم أن يسأل عن الشّيخ القمار ﷺ؟"، وأعوذ بالله من كلمة "أنا"، لكنّي كلّما تكلّمت ببركة سيدي الحاج القمار ﷺ أرى النور معاينةً وهو في صعود ونزول في وجه سيدي محمّد الكبير ﷺ بكل فرح ولا فخر، فيغمض عينيه ولا يتكلّم البتّة، وإذا ما سكت يسترسل الكلام على لساني دون انقطاع ببركة سيدي الحاج القمار ﷺ، ومع أنّنا لسنا من العلماء وإنّما نحن أناس ضعاف، ولكنّ الله أراد الأمور على هذه الشاكلة، وهذا أمر ربّاني، فيحسّه السامع في قلبه وكأنّه أمر حيّ، ولما حدّثناهم عن سيدي الحاج القمار ﷺ، ترى النّاس قد استغرقوا في البكاء، فهم أناس أهل صدق، وإذا ما حدّثتهم بصدق عن رجل صادق تتحرّك قلوبهم لسماع ذلك الحديث، وهذا ليس أمرا بسيطا.

[1] أصل الجملة بالعامية: "العين لمّا تمدّ، تمد لبعيد"

وممّا قاله سيدي الحاج الأحسن ﵁ لسيدي محمّد القمار ﵁: "**أنت نور أبصارنا**"، وقال له "**أنت ولد الرّوح**"، وقال له "**وسلّم لنا منّا على جميع أحبابنا من عرفنا ومن لم يعرفنا، فأنت نائبنا فيهم، وقل لهم لا يخافون فإنّ الله أحبّهم**"، وقال له:

**ولقـــــد نَزَلْـــــتِ فَـــــلا تَظُنِّـــــي غَيْـــــرهُ**

**مِنّـــــي بِمَنْزِلَـــــةِ المُحِـــــبِّ المُكْـــــرَمِ**

كما وقال له "**نحن إخوة ذات واحدة**"، وخاصّة هذه العبارة الأخيرة، فإذا ما أراد أن يفهمني إيّاها ينظر إليّ ثمّ يقول: "هل فهمتها؟" فأقول له: "نعم سيّدي فهمتها"، فيردّ قائلا: "حسنٌ، عليك بالكتمان إذًا"، ويكون هذا كلّه في قلبي، في حين أنّك ترى سيدي الحاج القمار ﵁ ممسكا سبحته كعادته، ولا شيء يظهر عليه البتّة، وكأنّه لم يحدُث شيء أصلا، في حين أنّ الأمور في الباطن تكون على أشدّها، فهو ممسك سبحته في الظّاهر في حين أنّه في الحقيقة في وسط الحضرة الإلهيّة مباشرة، أي أنّه في جمع الجمع، والأمر هنا جدّ عاديّ بالنسبة له ﵁، لأنّ جمع الجمع هو وكره وحياته، فمقامه هو تجلّيات الذّات، ومثل أولئك الرّجال لا يخرج إلاّ مرّة في الأمد الطويل من الدّهر.

وكان سيدي الحاج الأحسن ﵁ يمدحه ويقول فيه في المجلس: "**إنّ سيدي محمّد القمار ﵁ من أولياء الله تعالى**"، وهو حاضر في مجلسه ذاك، وقال سيدي محمّد القمار ﵁: "كان سيدي الحاج الأحسن ﵁ يقول أيضا: "إنّ لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرّهم"، يقولها وينظر إليّ مرارا وأنا معه في المجلس"[2].

[2] "**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**"، تخريج السيوطي لأحمد والبيهقي وأبي داوود والنسائي وابن ماجه عن أنس

كما وأوصاه سيدي الحاج الأحسن ﵁ بالسُنّة المطهّرة وبالتّمسّك بمذهب أشياخنا القدماء، والمراد منه هنا هو عدم الخلط وتقصير الهمّة، فكان الشّيخ القمار ﵁ يقول، في ما معناه: ليس لنا إلاّ القرآن والحديث والسنّة وكتب سيدي الحاج الأحسن ﵁، والجواهر، والبغية إن شئت، والرّماح، ولا تشتّت قلبك بين بقيّة الكتب والعلماء، ولا تجعل الأمواج تتداخل عليك ما بين خارجة وداخلة، حتّى تُضيِّع نَفَسَكَ، فهو الّذي تحصل به الفائدة، فحافظ على نَفَسِكَ وخاصّة مع الأناس الّذين يحملون ذات النَّفَسِ، وجميعكم مطالبون بالتمسّك بهذا النَّفَسِ جيّدا وإلى الممات، نسأل الله لكم أن يكون ذلك بعد عمر مديد إن شاء الله.

قلنا: وأوصاه سيدي الحاج الأحسن ﵁ بالسنّة المطهّرة وبالتّمسّك بمذهب أشياخنا القدماء وهم الصحابة وهو نفسه في السلسلة المعلومة ﵁ وأنّه جمع جميع أسرار المشارب ﵁، وفتح عليه ببركاته فصار ما كلّم أحدا إلاّ اتّبعه، فقال: "كلّما كلّمت أحدا إلاّ واتّبعني ببركاته"، وهذا موجود لدى كلّ من كان مأذونا بإذن صحيح وتكون المرتبة حاصلة عنده ويكون الطّابع الربّانيّ موجودا عنده، فلا يستغرب النّاس في اتّباعه، فإنّما هم يتّبعون إذنَ رسول الله ﷺ، ويقبّلون يد رسول الله ﷺ، وهذه سنّة الله في خلقه، فهذا أمر لا يُطلب، ولو أنفقت ما أنفقت فلن تجمع بين قلبين اثنين، فلو جمعهما الله، فهو سبحانه من يفعل هذا، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ، وإنّما هو الإذن الأصلي الّذي يتصرّف، أي إذن رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ هو القائم في إذنه وبإذنه، إلى قيام السّاعة، فلينظر الإنسانُ النّورَ المحمّديَّ القائمَ في النّاس، والقائمُ به النّاس، شريعة وحقيقة وطريقة، وقال ﵁: "فإنّه يتبيّن لي في كلّ كلمة ما لا يعدّ ولا يحصى من الحقائق"، كما وقال في أوائل 1980م تقريبا: "أنا مربٍّ" أو ممّا هو معناه، والعارف فوق ما يقول بطبيعة الحال، وكان قطبا في حياة سيدي الحاج الأحسن ﵁ وقد قال له: "أنت عضو من

أعضائنا"، وهذه قد فسّرها لي سيدي الحاج القمار ﷺ فقال: "ما عدد الأعضاء؟ أليسوا سبعة أعضاء"، فقلت له: "نعم سبعة أعضاء"، والمراد منه أنّ الأقطاب سبعة بعدد أعضاء الجسد[3].

وبمناسبة الحديث عن ذلك فقد صارت له طرفة ﷺ، وهو أنّ أحد العلماء طيّبي السريرة جاء يوما ما إلى جامع الزيتونة المعمور وكان معه كتاب علم أراد أن يبيعه للشّيخ القمار ﷺ، وقد سأل سيدي الحاج القمارﷺ قائلا: "سيدي، هل أنت عالم؟"، فما كان منه ﷺ إلاّ أن رفع يديه إلى الخلف، وسكت عن أصل القضيّة، وقد كنت معه وقتها.

كما وقال له سيدي الحاج الأحسن ﷺ: "... ولا يزيد فينا إلاّ محبّة أهل الله، فأنت منهم، فأبشر به واكتم"، وقد ظلّ خديما لدين الله وللشّيخ ولهذا المشرب الكريم طوال حياته فلم يتغيّر أبدا، كأنّه البارحة جاء من عند الفقيه من درب غلّف، وكان كثير الاجتماع بالشّيخ ﷺ يقظة وبأهل الغيب وبرسول الله ﷺ يقظة، وكان يختلي مع نفسه كثيرا، وهذا معلوم عند الكثير من الفقراء، وعند هذا العبد الحقير كذلك، فقد حدّثني كيف كان ﷺ يلتقي بالشّيخ يقظة، وكيف يلاقي النبيّ ﷺ يقظة وماذا يقول له، وقد دوّن ﷺ بعض هذه المسائل في كنّاشه، وإن شاء الله ننسخها ونجعل منها كتابا ينشر بإذن الله.

ثمّ فتح الله على يديه البلاد وأقبل النّاس عليه لتلقين الطّريقة التّجانيّة والتّربية، ومن صفاتهم أنّهم كانوا شبابا وكهولا، نساء وحتّى أطفالا، وهذه مزيّة أخرى، إذ ليس من السّهل أن يأتي أطفال صغار في السنّ إلى شيخ مربٍّ ليأذن لهم في الطّريقة، فأنت ترى الشّابّ منهم يلبس ثيابا من أحدث ما يوجد في عالم الموضة، وقد جعل شعره على هيأة التّسريحات الحديثة الّتي نراها في ذلك الوقت، ومع ذلك

[3] ربما المراد منها والله أعلم عدد مواضع الأعضاء التي تلامس الأرض في الصلاة وبها يتم السجود والله أعلم.

فهو جالس أمام شيخه يقرأ الوظيفة جماعة، وهو يقول "لا إله إلاّ الله" وغيره يهدر عمره في اللّهو واللّعب، فهذه كرامة كبرى، وفي ذلك الوقت كنت ترى الفقير ذاهبا لملاقاة سيدي الحاج القمار ﵁ وهو يلبس ثيابا بألوان زاهية وترى شعره مفروقا وما إلى ذلك، ومع ذلك فلا تفوته الوظيفة جماعة مع الشّيخ ﵁، والعبد الضعيف أدركتهم سنة 1985م.

وقد حسُن حال الجميع ممّن أخذ عنه الطريقة بصدق وبنية صالحة فكلّ من أخذ عنه بنيّةٍ إلا وفتح الله عليه الفتحَ الكبيرَ ولاحت عليه لوائح الفتح الأكبرَ، علم ذلك أو لم يعلمه، فالفتح موجود ولكن لابدّ من المحافظة عليه وذلك بتجديده مع الإخوان، حتّى يظلّ النَّفَس متزايدا، فإذا لم يزد فهو في تناقص، وهذا من العلم، وهذه معرفة، وأمّا الفتح فكلّ من أخذ عنه الطريقة بصدق فهو مفتوح عليه، لكنّ الخير في ازدياد.

وكان ﵁ شديد التّمسّك بأقوال الفقيه الحاج الأحسن ﵁، وأقوال مولانا أحمد التّجاني ﵁، ولا يعرف غيرها وإن علمها، وشديد التّمسّك بالسنّة المطهّرة حتّى في أبسط الأمور، فيغضب إذا أكل أحد بشماله، لنهيه ﷺ عن ذلك صراحة، ويغضب إذا دخل الفقير المسجد أو الزّاوية وليس معه ما يستر به عورته أو رأسه، وكان ﵁ يحثّ الفقراء على التأدّب في حضرات رسول الله ﷺ، ولذلك وجب أن لا نغضب إذا حثّنا أحدهم على تغطية الرأس في الزّاوية مثلا، فإن غضبنا لمثل هذا فنكون قد خرجنا من الطريقة ودخلنا في النَّفْس، ونحن لا دخل لنا مع النَّفْس، فكما بدأنا هذا الأمر ونحن أهل الله فنكمله ونحن أهل الله، وأهل الله هم أهل القلوب الصّافية، ولا دخل للدّنيا في علاقاتنا أبدا، إنّما نحن صُفاة القلوب بالله، ونحن على قلب شيخنا ﵁ وأرضاه، ولا نرضى بما هو دون ذلك أبدا، ولا يرضى هو لنا ذلك أبدا، فإن كان ما أقوله خاطئا فأصلحوا لي، وإن كان صوابا فلنتّبع

بعضنا البعض، وإلاّ فإنّ الإنسان تأخذه العزّة بالإثم، وحينئذ لا فائدة من الحديث في موضوع كهذا، فمن نسي مثلا تغطية رأسه فلا لوم عليه، ومن لم ينس فليحاول أن يغطّي رأسه ويستر عورته، كما كنّا نفعل كلّنا مع سيدي الحاج القمارﷺ ، فنحن إنّما اتّبعناه ﷺ لوجه الله لا لذاته، أي أنّنا اتّبعناه لأنّه متّبِع للسنّة المطهّرة حذو نعل بنعل، فوجب علينا أن نواصل ونتمّ ما بدأناه على نفس النّحو وعلى نفس المنهج، والدّين ليس "دين سيدي الحاج القمار ﷺ" وإنّما هو شرع الله ﷻ، ونحن اتّبعنا هذا الشّيخ لأنّه يتبّع ربّ العزّة ﷻ، فوجّهنا قلوبنا ومشاعرنا وفؤادنا إلى الله، وحتّى عندما نخلط في أمورنا فهو قد وجّهنا مع ذلك إلى الله، فلنواصل على هذا المنهج لأنّه به يكون الرّبح الّذي لا يستطيع أيّ واحد فيكم، رضي الله عنكم، أن يتصوّره، فلا تستطيعون تخيّل الرّبح الّذي ينتظرنا، لأنّ هذا الشّيخ ﷺ قد أعدّ لنا كلّ شيء، ووضعَنا في درجة لا يعلمها إلاّ الله، ولا فخر، فهذا فضل الله، وهكذا ﷻ أراد أن تكون الأمور، فإذا صدّقتم بهذا فإنّ هذا الرّبح باقٍ حتّى تروه أمام أعينكم، وعسى الله أن يهديكم لهذا.

ومن خصائص سيدي الحاج القمارﷺ أنّه يرى الإفادة الأحمديّة هي روح الكتب كلّها، وقد استخرج منها العجب العجاب، ﷺ وأرضاه، فيحدّثك عن أذواق سيّدي أحمد التّجاني ﷺ في الإفادة الأحمديّة ويقول لك لماذا قال كذا وكذا، حتّى تفرّد الشّيخ القمار ﷺ بمسائل لا يعلمها غيره، فالحاج المزالي ﷺ مثلا، وبالمناسبة هو يقرؤكم السلام كثيرا وقال: "استحضروني معكم في هذه اللّيلة العظيمة"، وهو عالم علاّمة، ذلك الرّجل الصّالح البركة، ﷺ، ومن أكابر خلفاء الشّيخ سيدي أحمد التّجاني ﷺ، فكان إذا حدّث النّاس عن سيدي الحاج القمار ﷺ فإنّ المجلس بأكمله، بجميع النّاس الحاضرين فيه، والزّاوية بكلّ ما فيها، بما في ذلك حيطانها، وكأنّها أصبحت تموج يمنة ويسرة لسماع ذكره ﷺ، ونحن نموج معها

ونكاد يغشى علينا من ذلك، والعبد الفقير كذلك، مع أنّ ما ذكره أعرفه وأحدّث به النّاس، ولكن عند سماعه فذاك أمر آخر، وفعلا يكاد يغشى عليّ، وسيدي محمّد المزالي ﷺ بحر، ومحقّق وعالم جليل، ومقدّم جليل وصادق، ﷺ وأرضاه، وكان ممّن ينكرون على الشّيخ البعقيلي ﷺ، فلمّا قابل سيدي محمّد القمار ﷺ شرب شربة عظيمة، وأصبح يؤلّف المؤلّفات في سيدي الحاج الأحسن ﷺ، وحين يحدّث النّاس عن سيدي محمّد القمار ﷺ يبكيهم، وحين أذنه سيدي محمّد الكبير ﷺ بأن يكتب عن سيدي الأحسن ﷺ قائلا له: "لابدّ وأن تكتب شيئا عن الفقيه"، فأجابه بأنّه هو أولى بذلك لأنّه ابن الفقيه، فقال له: "الابن لا يمدح أباه"، فما كان ردّه إلاّ أن قال: "الله يبارك، ما دمت حيّا فسأفعل إن شاء الله"، والآن وللسّنة الثالثة على التّوالي، كلّما ألقى سيدي محمّد المزالي ﷺ كلمة في ذكرى انتقال سيدي الأحسن ﷺ، فكأنّه لم تُلق كلمة غيرها، مع أنّ الكلمات كثيرة، ورضي الله عن جميع قائليها، ولكن مع سيدي محمّد المزالي ﷺ يكون الأمر مختلفا، وذلك بالإذن وببركة سيدي محمّد القمار ﷺ، فهو الّذي عرّفه بسيدي الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ، وهذا الّذي نتحدّث فيه إنّما هو علم، والحمد لله.

وكان الشّيخ القمار ﷺ يستنبط من أقوال الفقيه ومن الإفادة الأحمدية العجب العجاب بحيث تجده بحرا صافيا لا ينضب ولا يتوقّف لمن أراد العوم والشّرب، وكان يفني جميع أوقاته في تهذيب الفقراء وخدمة أحوالهم العليّة، ولا يتشوّف إلى ما عندهم أبدا، بل هو من يعطيهم ويؤلّف قلوبهم، وكان ﷺ فقيها من أعظم الفقهاء، كان فقيها ومذهبا في ذات نفسه ﷺ، وقد جمعنا المسائل الفقهيّة الخاصّة به، فإذا كنتَ عالما فقيها، والفقراء كلّهم يذوقون الفقه ببركته، فإنّك تحار فيه ﷺ، لأنّك ستجد أمامك فقيها على منهج الفقهاء الأكابر، فقد كان ﷺ فقيها عالما ورعا، وقد قصّر همّة الفقراء في الفقه المالكي على كتاب «الدرّ الثمين

والمورد المعين» لصاحبه محمد ميّارة المالكي، وذلك في نسخته الكبرى، وهذه من خصائصه في التّربية، لكي لا تقضّي عمرك كاملا تبحث عن المسائل في كتب الفقه كلّها، كما وقصّر همّة الفقراء أيضا على متن ابن عاشر، وفي كتب الطريقة على كتب الفقيه سيدي الحاج الأحسن ﵁ و«جواهر المعاني»، وفي المدح على البوصيري، وخاصّة «البردة» و«الهَمْزيّة»، وقبل هذا كلّه القرآن، ومن الحديث كتاب السيوطي المسمّى بـ«الجامع الصغير»، ومن تاريخ الغزوات «فتوح الشّام» للواقدي، إلخ، وهذه من جملة خصوصيّاته في التّربية، ﵁ وأرضاه، فإذا جاءه شخص له حاجة عند الله تعالى، فيعطيه حجابا ويقول له: "احمله أربعين يوما، وإذا لم تصلّ، فسيرجع لك ما كان بك أكثر من ذي قبل"، فانظروا العظمة والقوّة عند هذا "الدائرة العظمى" الّذي ليس له مثيل في الذكاء والفطنة، وهذا ذكاء ربّاني وليس ذكاء نابعا من دماغ بشر، الذكاء الربّاني المكحّل بالشّرع، وإذا ما أتاه النّاس ليدعو لهم، فيجيب الله دعاءه وتقضى لهم حوائجهم حتّى قبل خروجه من الغرفة، وقوله ﵁: "فإذا لم تصلّ يرجع لك ما كان بك أكثر من ذي قبل" إنّما هو تربية، فيخاف النّاس من قوله ذاك، ومن لم يكن يصلّي أصلا فإنّه يصبح من حينه مواظبا على صلواته، وهذا ما حدث حتّى مع بعض الفقراء الحاضرين معنا اليوم، والحمد لله.

وقد سنّ سيدي الحاج محمّد القمار ﵁ سنّة حميدة تعلّم النّاس منها علما غزيرا نافعا وهي قراءة كتب الشيخ البعقيلي ﵁ بعد الفراغ من الوظيفة مباشرة، وهذه قد انفرد بها الشيخ القمار ﵁، ألا وهي القراءة لبضع دقائق من الحديث النبويّ الشريف أو من كتب سيدي الحاج الأحسن ﵁ أو من الجواهر، وهذا يثير في الفقراء سرّا عجيبا جدّا، وها نحن والحمد لله مواصلون على ذات النّهج والمنهاج، فيعترينا إحساس عند خروجنا من عنده وكأنّنا أصبحنا معلّقين نطير في الفضاء،

وهذا من قوّة مدده ﷺ، وقال لي :"إذا ما قرأنا جماعة، فهذا يختلف كثيرا عمّن كان يقرأ وحده"، وبهذا يكون قد أرجع أصل المسألة إلى السنّة، وفعلا هي من السنّة، لأنّ فيها الجماعة، فنحن نجتمع عليها كلّنا فنتقوّى بها كلّنا، وحينئذ يزيدنا الله ﷻ من خيراته، وقد كان ﷺ في البداية يفسّر لنا ما نقرأه من الكتب، وهذا عندما كان عدد الفقراء محدودا، ولكن عندما تضاعف العدد أكثر فأكثر فإنّ همّته النّافذة هي الّتي كانت تسري في الفقراء سريان الماء في الشجرة، فتفعل بقلوبهم من الفهمِ الغزيرِ الواضحِ والذّوقِ الجليِّ الصادقِ العجبَ العجابَ، فلا يخرجون من الزّاوية إلاّ وكأنّهم يمشون بين هواء وأرض.

ومن جملة خصائصه ﷺ، وهذا ما يؤكّد عليه دائما، هو تقصير الهمّة على الشّيخ المربّي، ثمّ على المشرب، كما وكان يؤكّد كثيرا على مسألة الاستبراء من البول قبل الوضوء، لكي يتعلّمها الفقراء جيّدا، وكذلك مسألة حضور الوظيفة في الزّاوية مع الإخوان، والمراد منه أوّلا الزّاوية ثمّ الجماعة، والمقصود منه بالذّات هو الذّكر جماعةً، وذلك أن يذكر الإنسان وظيفته جماعة ولا ينفرد بالذّكر وحده، وكذلك مسألة الطمأنينة في الرّكوع والسّجود، وكذلك مسألة بطلان الوضوء عند عدم تتبّع الأماكن الغائرة في الوجه بالدّلك الجيّد، كإغماض العينين بصفة متوسّطة، ودلك ما بين الأنف والشّارب العلويّ وما بين الذّقن والشّارب السفليّ، ودلك المرفقين عند ثنيهما، فكلّها أماكن إن لم يصلها الماء مع الدّلك فوضوء صاحبها باطل، وكذلك مسألة التيمّم الّذي غالبا ما يخطأ النّاس في صفته، حتّى أنّه أراهم ﷺ كيف يكون التيمّم بالصّفة الصحيحة، لأنّ عديد الأماكن يمكن أن لا تمسّ الصعيد، وبالتّالي فالتيمّم باطل والصلاة بطبيعة الحال باطلة، وهو إنّما أخذ هذه الصّفة من التيمّم مباشرة من عند رسول الله ﷺ، ومن جملة ما يوصي به ﷺ التّورّع في أوقات الصّلاة وخاصة المغرب والعصر، فقد قال ﷺ أنّه في مرّة من المرّات، وبعد أن تأكّد جيّدا

من دخول وقت المغرب، قام فأذّن بالصّلاة، وعند إتمامه للآذان، قال له سيدي الحاج الأحسن ﵁: "سيدي محمّد، لا تؤذّن في هذا الوقت بعد اليوم"، وذلك ليُمكِّن الوقت أكثر فأكثر في المستقبل، وقد صارت نفس الحادثة مع بعض الفقراء، فحين أكمل الفقير الآذان قال له ﵁: "لا تؤذّن في هذا الوقت بعد اليوم"، فقال له الفقير، وكان قد تحقّق من دخول الوقت جيّدا: "في المدينة أذّنوا وصلّوا وأكملوا صلاتهم"، فأجابه ﵁: "لا تؤذّن في هذا الوقت بعد اليوم، فنحن شيء وهم شيء آخر".

وكان ﵁ شديد الحياء، شديد الأدب، شديد التّورّع، عمره لم يقل كلمة سوء، حاشى لله، فيَحتمل ويَحتمل ويوجّهنا إلى الله، ويصبر حتّى يفتح الله ﷻ، وكان أيضا شديد اللّين وجابرا للخواطر، لا ينام إلاّ ثلاث ساعات بين اليوم واللّيلة، وقد ينام نصف ساعة في النّهار، وهذه قد قالها له سيدي الحاج الأحسن ﵁ مرّة واحدة ولم يعقّب، فانظروا كيف هو هذا الرّجل، كما كان عظيم الهيبة، وإذا تكلّم كان كالأسد في زئيره، وإذا ما كان في حضرة السّلام فتراه هوَ هو، وإذا ما تكلّم عن سيدي أحمد التّجاني ﵁ فإنّه يقف ويرفع رأسه فلا يطأطئه كما في العادة، ويصبح في هيأة أخرى، فشيخنا سيدي محمّد القمار ﵁ من أكبر الشجعان إذا تكلّم، وذلك مع تمام الأدب واللّين وجبر الخواطر والصبر، لكنّه كان شجاعا فلا يخشى في الله لومة لائم، لا يخشى من صغُر شأنه ولا من كبُر، قويّ القلب مع تمام الحنان، ومن ذلك ما صار معه في الحجّ، ﵁، فقد كان رئيسَ فوج الحجّاج حينها، وهم الّذين اختاروه ليهتمّ بشؤونهم من أكل وشرب وحتّى حراسة متاعهم، وقد أراد الحجّاج الّذين معه أن يصلّوا أربعين صلاة في المدينة المنوّرة في ثمانية أيام يقضّونها هناك، ولكنّ السعوديّ منعهم، ولا أحد يستطيع أن يتكلّم أمامه، وأصرّ في منعه إيّاهم، كما أصرّ أن لا يظلّوا في ذلك المكان، أي أنّه يجب عليهم أن يغادروا، فقال

له سيدي الحاج القمار ﷺ: "اذهب وقل لسيّدك، إنّ حدَّ الخوفِ الموتُ، فلن نخرج من هنا إلاّ إذا ما صلّينا أربعين صلاة"، وقال ﷺ أنّ الحجّاج الّذين معه كانوا يرتعشون من الخوف، ولهم الحقّ في ذلك، لأنّه كان من السّهل حينها أن يُحملوا إلى السجن أو أن تُضرب أعناقهم في حادثة كهذه، فانطلق الرّجل إلى سيّده الّذي أرسله بهذا الأمر، ثمّ عاد متبسّما وسمح لهم بالبقاء، وهذا من قوّة شجاعته ﷺ وأرضاه، والشواهد في هذا الميدان كثيرة، وهذا حتّى مع أولاد الشّيخ سيدي أحمد التّجاني ﷺ، فقد كانت له القوّة أن يكلّمهم وأن يذكّرهم ولم يراجعه منهم أحد أبدا، بل يعظّمونه ويسمعون له ويعرفون قدره وقيمته ويقدّرون ولايته، وقد أخذ عنه كثير منهم، وهم موجودون إلى الآن.

وكان ﷺ إذا طلب منه أحد أن يدعو له، يقول: "بالسِّيفْ تعطيه الآن"، يقولها ويضحك ﷺ، لأنّ النّاس يظنّونه يقول "بالسِّيفْ" على الله، وهو إنّما يقول "بسيف القدرة".

وأمّا شفوف مرتبته ﷺ، فقد قال فيه سيدي الحاج الأحسن ﷺ: "والله، لن تجدوا مثله ولو ذهبتم إلى فاس"، كما وكان ﷺ يقسم على الله فيبرّه في قوله، ويُعرف عنه أنّه صاحب كلمة واحدة لا تردّ أبدا، ما نسمّيه نحن "بو كلمة" أو "صاحب الكلمة الواحدة"، وإذا أشار إلى أمر فإنّه كائن لا محالة، وقد كان في صغره يقول: "ما دعوت الله بشيء إلاّ تحقّق من حينه ما نطقت به وتحرّكت به شفتاي"، نكتفي بهذا القدر وسنواصل القراءة عنه ﷺ في مرّة قادمة إن شاء الله.

وأمّا بالنّسبة لكم أنتم، فمن تذكّر مسألة عن سيدي محمّد القمار ﷺ فليدوّنها، فهذا علم، ولو ظهرت لك المسألة بسيطة أو عاديّة، فدوّنها، ومن ثمّ قد يأتي أناس أعطاهم الله بسطة في العلم فيستخرجون منها مسائل عديدة، إذ يمكن أن تستخرج منها مسائل علميّة باعتبار أنّ العارف ينظر إلى أصل الحقائق، ولله

الحمد، ونستسمحكم عذرا إن أطلنا عليكم، ولكن هذا ما جاد به اللّسان، فهل لدى أحدكم ما يقوله أو ما يسأل عنه؟، نختم بالدّعاء.

اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا واسترنا واجبرنا وارزقنا وارفعنا ولا تضعنا، اللّهم زدنا من إمداداته ﷺ وأرضاه، اللّهمّ رضّه عنّا، اللّهمّ رضّه عنّا، اللّهمّ رضّه عنّا، اللّهمّ اجعلنا قرّة أعينه في الدّنيا وفي الآخرة، اللّهمّ يا ربّ لا تجعلنا من المبدِّلين ولا من المغيِّرين ولا من الفاتنين ولا من المفتونين بل من المتَّبعين بأكمل وأشمل وأعظم الإتّباع، بمحض فضلك وجودك وكرمك يا ربّ، اللّهمّ حقّقنا فيه وزدنا فيه تحقّقا واتّباعا وتعظيما وإجلالا ومحبّة وفهما وفتحا، والفتح الواحد قليل، فزدنا فيه فتوحاتٍ في فتوحاتٍ في فتوحات، وهو لها ﷺ وأرضاه، ونحن نعرف ما نقول، فهذا ليس من باب تحدُّثِ رجل عن شيخه، فهذا حقّ، ﷺ وأرضاه، اللّهم استر أحوالنا في الدّارين، اللّهمّ صفّ قلوبنا ومزاجنا وأمزجتنا، اللّهمّ اغفر ما في قلوبنا من قلق أو وسواس أو غيره، واحشرنا يا ربّ في حضرة "كنتُهُ"، أجمعين إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز، اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا، اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا، اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا، اللّهمّ إنّا نعوذ بك من ... اللّهمّ إنّا نعوذ بك من الشرّ كلّه عاجله وآجله، اللّهمّ ... الكلام يأبى أن يخرج على لساني، وهذا ببركاته ﷺ، الحمد الله، استروا منّا ما رأيتم، وهذا ببركاته ﷺ، سبحان الله، الكلمة تكاد تخرج وهو لا يأذن لها بالخروج، سبحان الله، ﷺ وأرضاه، ماذا نستطيع أن نقول؟!، اللّهمّ إنّا نسألك من خير ما سألك منه سيّدنا محمّد ﷺ، ونعوذ بك من شرّ ما استعاذ بك منه سيّدنا محمّد ﷺ، اللّهمّ إنّا نسألك من الخير كلّه عاجله وآجله ونجّنا من الشرّ كلّه عاجله وآجله، اللّهمّ أبق لنا جميع أولاده وبناته يا ربّ في أحسن الأحوال، بمحض الفضل والجود والكرم، اللّهمّ احشرنا معهم يا ربّ، اللّهمّ زدنا فيهم محبّة وتعظيما لوجهك الكريم، وزدهم فينا محبّة وتعظيما لوجهك الكريم، اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا بمحض

فضلك وجودك وكرمك يا أرحم الرّاحمين، يا أرحم الرّاحمين، يا أرحم الرّاحمين، اللّهمّ متّعنا بأسماعنا وصحّتنا واجعلها الوارث منّا، بجاه أنوار الفاتحة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (1) الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ (2) مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (3) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (4) اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ(6) غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)

بحمد الله تعالى.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

## نَسَبُ الرَّسُول ﷺ [4]

البيان: فضلُ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به آمين، على دين الإسلام وعلى أمّة الإسلام قائم إلى قيام السّاعة وحتّى في الآخرة، ففضله لا يُعقل ولا يُتصوّر ولا يُقاس بأيّ ميزان، فكلّ عارف بالله تعالى مفتوحٌ له في المعرفة العيانيّةِ يَعلم يقينا أنّه يستمِدّ من كلام الشّيخ رضي الله عنه، يستمِدّ علمه وأسراره وأنواره من كلام الشّيخ مباشرة، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به، آمين، لهذا يقول سيدي الحاج الأحسن البعقيلي رضي الله عنه: "إنّما أُحِبّ العَوْمَ في حواشي بحر هذا الشّيخ"، أو كما قال رضي الله عنه، لأنّه يستمدّ من كلام الشّيخ، وكلّ عارف كذلك، فإنّه يستمدّ من كلام الشّيخ سيّدي أحمد التّجاني رضي الله عنه، وخاصّة أصحاب الشّيخ الّذين هم في الطّريقة التّجانيّة، ثمّ يستمدّون كذلك ممّن استمد من كلام الشّيخ رضي الله عنه، فيُفتح لهم مثلا في "الإراءة"، ويُفتح لهم في كلام العارفين كسيدي الحاج الأحسن البعقيلي وسيدي الحاج القمار وكسيدي العربي بالسّائح، رضي الله عنهم، يُفتح لهم في كلّ كلامِ العارفين لأنّ أصله في كلام الشّيخ، ولذا قال سيدي الحاج القمار رضي الله عنه يوما ما في مسألة معيّنة، أنّ كلّ ما يخرج منها هو في الأصل خارج من الإفادة الأحمديّة، وقال أنّها أصل كلّ شيء، والجواهر هو أصل كلّ شيء، فإذا قلتَ مثلا "وسألتُ الشّيخ رضي الله عنه عن كذا

[4] راجع جواهر المعاني لسيدي الحاج علي حرازم طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع لسنة 2007م الباب الخامس الفصل الأوّل في ذِكْر أجوبته على الآيات القرآنية على طريق أهل الإشارة الربّانية

وكذا" فإنّك وصلت إلى ما لا نهاية له في المعرفة بالله تعالى، بمجرّد ذكر اسمه ﷺ، وإذا زدتَ بقولك مثلا "هل في آباءه ﷺ وفي أجداده من هو كافر؟ كما يظنّ بعض الجهلة من أهل السّيرة إلى آخره" فأنظر بماذا يجيبك سيّدي أحمد التّجاني ﷺ،وهل تُزار أُمّنا آمنة أم لا؟ نحن كفقراء تيجانيّين، هل نزورها أم لا؟ فإن كانت صحابيّة فنزورها وإن لا فلا، وهل هي مسلمة أم لا؟ باعتبار أنها ماتت قبل بعثة رسول الله ﷺ، حاشى لله ورضي الله تعالى عنها، فقد قال الشّيخ القمار ﷺ: وأمّا أبواه ﷺ، أمّنا آمنة وسيّدنا عبد الله ابن عبد المطّلب، فقد أحياهما الله ﷻ وقابلهما به واستسلما على يديه الكريمتين، ﷺ، ثمّ رجعا إلى ما كانا عليه، فهما مسلمان قطعا"، فهل يجوز زيارتهما أم لا؟ سنرى بحسب كلام الشّيخ ﷺ ...

فقير: وهما من أهل الفطرة في فترة ما بين الرّسل ...

البيان: نعم، وهما من أهل الفترة، فلا يوصف من كان من أهل الفترة بالكفر أبدا، أهل الفترة أي ما بين سيّدنا عيسى عليه السلام وسيّدنا محمّد ﷺ ليس عليهم حساب ...

فقير: ﴿**وَمَا كنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[5] ...

السّارد: وسألته رضي الله عنه: هل في أجداده عليه الصلاة والسلام من ليس بمؤمن كما يُفهم من جُهّال بعض أهل السير من جلبهم لكثرة الأخبار، صحيحة أو غير صحيحة فأجاب ﷺ بقوله: اعلم أنّ أجداده ﷺ ...

البيان: قوله ﷺ "اعلَمْ"، أي "استمع لي" فإنّي أحدّثك حديثا تأخذه مأخذ العلم القطعيّ، أي: اسمع منّا كلاما تأخذه مأخذ العلم القطعي، "اعلم"، هذه الكلمة هي تمهيد للفظ الشّيخ سيدي أحمد التّجاني ﷺ، وكلّ لفظ من ألفاظه ﷺ تُفتح لأجله كتبٌ وكتب،

[5] سورة الإسراء الآية 15

ومع الذّوق ومع لذّة الخطاب، حتّى تقابل ذاتك ذاته ﷺ، فكلّ من قابله إلاّ ويحصُل له الذّوبان عن الأكوان، وهي أقوى محبّة، محبّة الإتّباع ومحبّة الأذواق ومحبّة الفهم ...

السّارد: اعلم أنّ أجداده ﷺ كلّهم مؤمنون من أبيه عليه السلام إلى سيّدنا آدم عليه السلام...

البيان: الحمد لله، فالشّيخ ﷺ يراهم من سيّدنا عبد الله ﷺ إلى سيّدنا آدم عليه السلام، فقال: اعلم أنّهم كلّهم مسلمون، وقد فصّلهم الشّيخ في نظرة واحدة، وهكذا يكون العارف بالله، إذ يتجلّى له كلّ شيء في نَفَسٍ واحد، كقوله ﷺ: "أين مثلُ سيدي الحاج علي يا مسكين؟"، لأنّه في ذلك الوقت، نظر في العوالم كلّها فلم يجد أحدا قلبُه أصفى وأعلى من سيدي الحاج علي التّماسيني في ذلك الزّمان، ﷺ وأرضاه، وهذه قد قالها سيدي الحاج القمار ﷺ ...

السّارد: فقال له السّائل: ما معنى قوله تعالى، ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ**﴾[6] فأجاب ﷺ بقوله: إنّ آزر هو عمّه ولو كان أباه أصليّا ما ذَكَر آزر بعد أبيه ...

البيان: وقبلها قال: اعلم أنّ آبائه كلّهم مسلمون من أبيه عبد الله إلى آدم، وهذا لكي نفصِل هذه المسألة نهائيّا، وقوله "آبائه" أي وأمّهاته، وليس آبائه الذّكور فقط، أي آبائه ذكورا وإناثا، فكلّهم مسلمون، لم يمسسهم من الكفر شيء أبدا، وفي كلّ سلسلته ﷺ كذلك

السّارد: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ**﴾[7] فأجاب ﷺ بقوله: إنّ آزر هو عمّه ولو كان أباه أصليًّا ما ذكر آزر بعد أبيه، يكفيه الأب، ويدلّ على هذا استغفاره لوالديه في آخر عمره، بعد ما أخبر اللهُ أنّه تبرّأ من أبيه بقوله: ﴿**فَلَمّا تَبَيّنَ لَه أَنّه عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرّأَ مِنْهُ**﴾[8] ...

[6] سورة الأنعام الآية 74
[7] سورة الأنعام الآية 74
[8] سورة التوبة الآية 114

البيان: أي تبرّأ من عمّه ...

السّارد: وفي آخر عمره قال:﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ**﴾[9]، ولو كان أباه ما تبرّأ منه، وفي عين التّحقيق أنّ الله قدّس الأنبياء عليهم السلام، ما أخرج نبيّا من نطفة منجسّة بالكفر ...

البيان: قد قال هذا في النبيّ ﷺ، ثمّ عمّم ذلك على جميع الأنبياء والمرسلين، وقال رضي الله عنه: إنّما آزرُ عمّه وليس بأبيه، فلو كان أباه ما تبرّأ منه أبدا، وشهادة ذلك أنّه قال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[10]، ولو كان كافرا لما استغفر له، فليس له الحقّ في ذلك، ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾[11]، فلا يَطلُبُ أيّ نبيٍّ من اللهِ إلاّ ما كان جائزا أن يُطلب، ثمّ عمّم الشيخ رضي الله عنه فقال: ولا أيّ واحدٍ منهم، أي من الآباء، لأنّه سبحانه وتعالى قال: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾[12]، فبهذا كلّهم مسلمون، وها قد عمّمها الشيخ رضي الله عنه تقريبا على الأنبياء كلّهم...

السّارد: ما أخرج نبيّا من نطفة منجسّة بالكفر، وفي الحديث يقول ﷺ: «**لَمْ يَزَلِ اللهُ يَنْقُلُنِي مِنَ الأَصْلاَبِ الكَرِيمَةِ إِلَى الأَرْحَامِ الزَّكِيَّةِ**»، إلى آخر الحديث ...

البيان: لم يمسسني سفاح الجاهليّة أبدا، أو كما قال ﷺ، فلم يمسسه أيّ شيء من سفاح الجاهليّة أبدا، لم يزل ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة، أو كما قال ﷺ ...

السّارد: وفي الحديث الآخر، قال ﷺ: «**بُعثتُ من خيرِ قُرُونِ بني آدمَ قَرْنًا فَقَرْنًا لمْ تَفترِقْ شُعبتانِ إلاَّ كُنتُ في خيرِهِمَا**»[13] ...

---

[9] سورة نوح الآية 28
[10] سورة إبراهيم الآية 41
[11] سورة "المنافقون" الآية 6
[12] سورة التوبة الآية 28
[13] الحديث رقم 3148 من الجامع الصغير

البيان: إلاّ كنت في خيرهما، ولا يكون الكفر في الخيريّة، فكلّما افترقت شعبتان من سيّدنا آدم عليه السلام إليه ﷺ، إلاّ وكان ﷺ في النطفة الأعلى بينهما، والخيريّة لا يكون فيها الكفر، إذ لا تكون إلاّ للمسلمين، وليس أيّ مسلمين بل من أحسن المسلمين، كالأولياء والأقطاب والصدّيقين، حتّى وصل إلى أبيه، فسيّدنا عبد الله صدّيق، ومن يعرف فربّما يكون قطبا

السّارد: ولعلّ من يقول إنّ الخيريّة فيهم مع كفرهم، بما تنال النّاس من الخير والسخاء والصّفح والتّجاوز ومكارم الأخلاق، وهذه توجد في الشخص الكافر بالله تعالى ...

البيان: هنالك من يقول مثل هذا، فسنرى بماذا سيجيب الشّيخ رضي الله عنه ...

السّارد: قلنا: إنّ الخيريّة فيهم هي خيريّة الإيمان، إذ لم يكن عصرٌ من عصرِ آدم إلى عصره ﷺ ما خلت فيه الدّنيا يوما واحدا من ظهور الأولياء في الأرض ...

البيان: أنظر هنا، فمنذ خلق الله سيّدنا آدم، وكما كان الأنبياء والصدّيقون إلى آخره، كان الأولياء كذلك، إذًا فأولياء الله تعالى كما نراهم الآن، هم موجودون منذ خلق الله سيّدنا آدم، وهم الأناس الّذين آمنوا بربّهم وآمنوا برسول الله ويحبّون الخير، وكما نحن جالسون هنا، هؤلاء هم الأولياء، كما ترون أنفسكم، أنظر إلى نفسك، فهكذا كان الأولياء منذ أوّل الخَلق، يحبّون الخير، ولا يحبّون الشرّ، ويحبّون النبيّ ﷺ، ويحبّون الله سبحانه وتعالى، وينتظرون ملاقاة ربّهم سبحانه وتعالى، ويعملون الخيرات، وإذا أخطئوا يستغفرون، هؤلاء هم الأولياء، أولياء الله ...

فقير: والقرآن ذكرهم سيدي، فهم مذكورون كمثل مؤمن آل فرعون وحبيب النجّار في سورة يس ...

البيان: كلّهم أولياء، ومن زمان سيّدنا آدم وهم موجودون ...

السّارد: ما خلت فيه الدّنيا يوما واحدا من ظهور الأولياء في الأرض، يدفع الله بهم البلاء عن أهل الأرض ...

البيان: ما خلت منهم الدّنيا يوما واحدا، أي لم تخل الأرض في أيّ يوم من الأولياء، ليدفع بهم الله البلاء عن الأرض، وكأنّهم "غطاء"، فبعد "غطاء" الأنبياء والرّسل جاء "غطاء" الأولياء، يخفّض من حرارة التجلّيات الإلهيّة، حتّى تصل هذه التجلّيات إلى الخلق من بعد وصولها إلى الأولياء، فيصير بإمكان الخلائق أن يأكلوا ويشربوا ويتزوّجوا ويذهبوا للأسواق ويكذبوا ويخلطوا في معاملاتهم، فكلّه تحت مظلّة أولياء الله ﷻ، فأولياء الله ﷻ هم الّذين يمتصّون تلك الحرارة وتلك القوّة الناتجة عن التجلّيات الإلهيّة، ولذا من كان له تجلّ خاص فحتّى وجهه أو بدنه قد يتغيّر ويتبدّل لونه، لأنّه حتّى الماءُ الموجودُ في بدنه يجفّ من قوّة التّجلّي، وما هو التجلّي؟ هي حضرة إلهيّة، وهي القوّة المودعة في تلك الحرارة المتوجّهة إلى الجسد، وبالتّالي فحتّى البدن يتأثّر، ومنه فجسد الإنسان أو الوليّ يتأثّر من التّجلّيات الإلهيّة، ولذلك قال النبيّ ﷺ: رحم الله أقواما يحسبهم النّاس مرضى وما هم بمرضى، أو كما قال، إنّما هي تجلّيات الربوبيّة من شدّة المحبّة، أي من قوّة محبّته لذلك الشّخص، لأنّ ذلك الشّخص فيه قوّة عبوديّة إلى الله، فتقوى فيه محبّة الله فيجذبه، وكأنّه، ولله المثل الأعلى، مثلا شخص يغار كثيرا على شخص آخر، يحبّه، فكلّما اقترب منه شيء إلاّ وأبعده عنه، قليل من الحرارة وقليل من التجلّيات، فتراه يخرج زفيرا حارّا دلالة على شدّة العطش، لماذا؟ من شدّة المحبّة، فتتتالى عليه الأتعاب والأمراض، ويصبح النّاس واقفين ضدّه، وكلّ ذلك من الله، وهو شدّة محبّة الله له، حتّى يجعله خالصا ممحّصا لذاته العليّة ﷻ، من شدّة، لا نستطيع أن نقول "تعلّق الله بعبوديّة ذلك الشّخص" ولكن نقول من شدّة "محبّة الله لذلك العبد"، ولذلك يشهد قوله ﷺ: «**أشدّكم بلاء الأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل**»[14]، ومن هنا قال الشّيخ رضي الله عنه: ما خلت الأرض منهم يوما واحدا، ما

[14] «أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الصالحون ثمّ الأمثل فالأمثل» الحديث رقم 1056 من الجامع الصغير

مرّ يوم إلاّ وفيه أولياء الله تعالى، يدفع بهم الله البلاء عن أهل الأرض، وهم يتحمّلون ذلك كلّه، يحملون حمل أمّة أو أمم أو أقوام أو أقاليم، ويتحمّلون كلّ ذلك التّعب ويمتصّونه، حيث يعطيهم الله القوّة، فيكونون في حرارة شديدة جدّا، وبقيّة الخلق يكونون في فرح وسرور ولا يحسّون بشيء من هذا ...

السّارد: وخيريّة الكافر على المؤمن مستحيلة شرعا، فدلّ خبره ﷺ على أنّ كلّ أب من آبائه أفضل من أولياء عصره ...

البيان: لأنّهم في الخيريّة، في وسط الخيريّة، كلّهم مؤمنون، وفي وسط الخيريّة هم أعلى أولياء عصرهم، قطعًا، وهذا كلامه ﷺ

السّارد: ما عدا النبوّة، فدلّ أنّهم مؤمنون بقوله: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا**»[15]، لم تفترق شعبتان، إلى آخره، قلنا: وهكذا جميع الأنبياء، ما اخرج الله نبيّا من نطفة منجّسة بالكفر قطّ، لأنّ الكافر نجس، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾[16]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾[17]،الآية، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ إلى قوله ﴿**أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾[18] ...

البيان: ولذلك فمن جملة عمل المقدّمين في الطريقة اليوم، أنّهم يتناولون كتبا كـ"جواهر المعاني" و"الرّماح" مثلا، فيأخذون منها الآيات، ويأخذون منها الأحاديث ويكتبونها كاملة، لأنّ الشّيخ رضي الله عنه لقوّة علمه، ولقوّة علم عصره، يضع ذلك من المسلّمات، فيبدأ مثلا بأوّل الحديث أو بأوّل الآية، ومن البديهي جدّا أنّ الباقي كلّه مفهوم للسامعين، أمّا الآن، فأن تأتي بأوّل الآية فقط أو حتّى بنصفها، فربّما لا تجد من يكملها معك، ولهذا

[16]سورة التوبة الآية 28
[17]سورةالأنفال الآية 55
[18]سورةالبينة الآية 6

يعتبر عملا مهمّا جدّا لو أنّ الإنسان يستعين بحافظ من الحفّاظ في القرآن الكريم، فيحدّد له بداية الآيات الموجودة في الكتاب، وهو يعطيه الآية كاملة، فيكتبها كاملة في ورقة، ليتبيّن المعنى، لأنّه في بعض الأحيان، يعطي ﷺ كلمات في بداية الآية، ولكنّ المعنى المراد إيصاله يكون في وسط الآية، ونحن لم نصل لوسطها أو آخرها، لأنّنا لم نقرأها، وكذلك الحديث، يذكر بعضه، ثمّ يقول (...الحديث)، وهو معلوم عندهم، لأنّها مدينة (فاس) وما أدراك ما (فاس)، فيكون هذا من الأعمال الّتي نحتاجها الآن، يضع السورة والآية وعددها، ويكون ذلك في الطرّة، الآية كذا من سورة كذا، أمّا بالنسبة لهم، فمن الأمور المعتادة أن يحفظ المرأ القرآن كاملا، فشعيب مثلا، وهو من تلامذة سيدي الحاج الأحسن ﷺ، كان حافظا لبضع عشرة ألف حديث تقريبا، بأسانيدها، وعن ظهر قلب، ومع ذلك لا يعتبر من الحفّاظ الأكابر، وما إن ذهب إلى (سوس) تقريبا، كان أوّل ما وجد، رجلا طاعنا في السنّ يدرّس صحيح البخاري، فصار يتحسّر ويقول: "كلّ النّاس أعلم منك يا شعيب"، لأنّه وجد ذلك الشّيخ علاّمة، وذلك لأنّه، أي الشّيخ أبو شعيب الدّكالي، كان يظنّ أن لا أعلم منه في علم الحديث، لأنّه يحفظ بضع عشر ألف حديث تقريبا، وقيل مائة ألف أو تزيد، عن ظهر قلب وبالأسانيد، عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ، قال ﷺ: ...، كان يحفظ مجلّدات، ومع ذلك ما إن وصل إلى (سوس)، وما إن قابل أوّل رجل فيها، حتّى علم أنّه أعلم منه، وهذه ذكرها سيدي الحاج الأحسن ﷺ، ولذا، إذا قال سيدي الحاج علي حرازم ﷺ: "كذا وكذا ... الحديث"، فالمراد منه أنّها أحاديث معروفة كلّها عندهم ومحفوظة، كصحيح البخاري وصحيح مسلم والمتّفق عليه من الحديث، ولكن بالنّسبة لنا نحن، فنحتاج إلى تخريج تلك الأحاديث، ويكون ذلك عملا عظيما، لأنّه سيأتي زمان إن شاء الله، يكون فيه العلماء في الطريقة هم الّذين يدرّسون، وسيدرّسون من كتب الشّيخ، من "البغية" ومن "الإراءة" ومن "الشّرب الصافي" ومن "الرّماح" ومن "جواهر المعاني"، أي من كتب أشياخنا ومن كتب الخلفاء في الطريقة، فإذا احتاجوا إلى معلومة تيسَّر لهم البحث عنها، حتّى إذا تكلّم أحدهم على منبر من المنابر أو في درس من الدّروس

تتزعزع القلوب، فليس هنالك كلام تتزعزع له القلوب ككلام شيخك، ولماذا؟ لأنّ فيه نورانيّة خاصّة، ومن أين أتت هذه النورانيّة الخاصّة؟ هي نابعة من قوّة الإيمان برسول الله ﷺ، ببركة الشّيخ رضي الله عنه، ومن هنا كان اللّفظ خارجا من القلب بنورانيّة خاصّة، وتلك النورانيّة الخاصّة هي الّتي تفعل الأفاعيل في المتلقّي، وهي الّتي تزعزع وتحرّك القلوب، وذلك النّور هو الّذي يتحرّك له القلب، في حين أنّه في غير هذه الحالة قد يقرأ الإنسان مثلا عشرة آلاف كتاب، ولا يتأثّر، وأمّا أصحاب الشّيخ رضي الله عنه فيؤثّرون، لأنّ لهم يقينا عظيما في مقام الإحسان، فإذا تكلّم المقدّم، وخاصّة من كان مقدّما بإذن صحيح، حتّى وإن لم يكن له باع في العلم، لكنّه إذا تكلّم بما له من العلم، يرسخ كلامه وينطبع في القلوب، ويحصل به النّفع العميم، ويُدهش العلماء من قوّة علمه، وفي الحقيقة إنّما ذلك بقوّة الإيمان الصّافي الصّادق الّذي يخرج من تلك النّورانيّة الّتي تأثّر في القلوب، وسيأتي يوم يصبح النّاس يدرّسون فيه بهذه الطّريقة إن شاء الله ...

السّارد: دلّ هذا أنّ الخيريّة في الإيمان فقط، ولا خيريّة في الكفر، فحصل لنا من هذه الأدلّة القطع بأنّ آباءه ﷺ كلّهم مؤمنون، وأمّا ما ذُكر في آزر أنّه ليس من أجداده كما تقدّم، وحصل لنا من هذا البحث صحّة القطع أنّه لم يقع في صلب كافر ﷺ قطّ، من لدن آدم عليه السلام إلى وجوده ﷺ، ودلّ أيضا على أنّ كلّ أب من آباءه ﷺ أفضل من أولياء عصره كما قدّمنا، وهذا خاصّ به للحديث "لم يلتقيا على سفاح قطّ"، من آدم عليه السلام إلى وجود ذاته الشّريفة ﷺ، دون غيره من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فلم يكن هذا إلاّ في آباءهم المباشرين لهم وأنّه لم يكن كافرا فيهم. انتهى. قال شيخنا رضي الله عنه: في فضل سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه، قال: وفي الحديث عنه ﷺ، «**كنّا أنا وعلي نورين بين يديّ الله تعالى ثمّ أودعنا في صلب آدم فلم يزل ينقلنا من صلب إلى صلب إلى عبد المطّلب، فخرجت في عبد الله، وخرج في أبي طالب، ثمّ اجتمع نورنا في الحسن والحسين، فهما نوران من نور ربّ العالمين**»، وقال سيّدنا رضي الله عنه: ما يصل شيء في

الوجود من العلم مطلقا إلاّ من صهريج عليّ ﷺ، لأنّه باب مدينة علمه ﷺ، لا من الخلفاء الأربعة ولا من الصّحابة بأجمعهم ...

البيان: وأمّا هذه فلو قرأها الشّيعة مثلا، لانتهى كلّ شيء، وغدًا يأتون لمعانقتنا ونكون أحبابا وأكثر من الأحباب، ولذلك لا يجتمع أهل السنّة وأهل الشّيعة، وهما الفرقتان الأكبر في العالم الإسلامي، إلاّ في الطّريقة التّجانيّة ...

السّارد: وقد قال ابن عبّاس ﷺ: انقسم العلم كلّه عشرة أجزاء، تسعة كلّها لعليّ ﷺ ما شاركه فيها أحد، والعُشُرُ كلّه مقسوم بين الخلق، وكان أعلم الخلق بالعشر الباقي

البيان: ﷺ وأرضاه، هذا أمر عظيم جدّا، ورقم الصّفحة 204 كي نعود بالنّظر إليها عند الحاجة، فهذا أمر عظيم جدّا، فانظروا هذا العلم الّذي تحدّث عنه ابن عبّاس ﷺ، وعن سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه، والّذي هو حامي حمى الطّريقة، ﷺ وأرضاه ونفعنا به آمين، ومع ذلك يبقى كلّ هذا العلم هو علم الباطن فقط، وليس بعلم باطن الباطن، وأمّا علم باطن الباطن فهو مقصور ومحصور في الشّيخ سيّدي أحمد التّجاني ﷺ وأرضاه، أظهره الله على يديه، وهو ممدّ الخلائق أجمعين، ما عدا الأنبياء والمرسلين، وهذا من أسرار الطّريقة، فلا يُقال، وإنّما يُعرف، فإذا عرفتَه، فالمزيّة لا تقتضي التّفضيل، وسيّدنا عليّ هو من هو، ﷺ وأرضاه ونفعنا به آمين، هو حامي حمى الطّريقة، وهو من يحمينا ويقف معنا، ومع ذلك فإنّ الشّيخ سيّدي أحمد التّجاني ﷺ له هو وأصحابه علم باطن الباطن، وليس في ذلك الزّمان لسيّدنا عليّ ﷺ ولمن دونه من العلماء إلاّ علم باطن الشّريعة، وبعده ومع ظهور الشّيخ التّجاني ﷺ خرج علم باطن الباطن وهو العلم الخاصّ برسول الله ﷺ، وقد أفاضه عليه إفاضة تامّة لم يشاركه فيه أحد، إلاّ من أراد أن يفيض عليه من أهل خصوصيّة الشيخ ﷺ، من الأصحاب ومن الأقطاب الكمّال، يفيض عليهم من باطن الباطن، كسيّدنا ومولانا محمّد القمار ﷺ، وسيّدنا ومولانا الحاج الأحسن ﷺ، وغيرهم من الأكابر، أهل باطن الباطن، أمّا كلّ تلك العلوم فهي علوم باطن الشّريعة فقط، وهذا من

أسرار الطّريقة وهي مما يعلمه الإنسان ولا يقوله، من أسرار الطّريقة الّتي قالها لي سيّدي الحاج القمار رضي الله عنه مرارا.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

# حُسْنُ الظَنِّ بِاللهِ تَعَالَى[19]

البيان: نحن نبيِّن للفقير أين هي المزالق الّتي تؤدي إلى الاعوجاج في الوجهة إلى الله تعالى، وكلّما كان هنالك مزلق قد يؤدي به إلى خطأ في الاعتقاد أو في التّوجّه إلى الله ﷻ أو في العبوديّة، إلاّ وذلك المكلَّف ينبّه له، لماذا؟ لأنّه قد تلّقى دروسا وأفيض عليه من هذه النّقاط الحمراء الّتي تكون نتيجتها أن يحصل لك اعوجاج في توجّهك إلى الحضرة الإلهيّة، لأنّك فقير الشّيخ سيّدي أحمد التّجاني ﵁ وأرضاه، وفقير سيّدي أحمد التّجاني ﵁ لابدّ وأن يكون على الصّراط المستقيم، هذا الصّراط المستقيم الّذي هو موصول مباشرة بالحضرة الإلهيّة، وعلى هذا، فجميع الفقراء كلّهم في صفّ واحد في الصّراط، في ﴿**إِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**﴾ وهو أنّ قلوبهم متوجّهة مباشرة إلى الحضرة الإلهيّة، يعبدون الله بغير نوال، أي بدون غرض، إنّما هم يحبّون كلّ ما كان لله، وكلّ ما كان لغير الله فهم لا يركنون إليه ولا يحبّونه، والمكلّف في الطّريقة، أي من بلغ درجة التّربية، فإنّ الشّيخ ﵁ يريه هذه المزالق، بفراسة نورانيّة وفيض من الله ﷻ، وهو أمر بسيط عند الله، يفيضه على كلّ من أراد، وبأسهل ممّا يكون ويتصوّر، فيجعل ﷻ المعرفة في خشبة أو دجاجة أو قارورة، وهذا أمر لا يستصعب إلاّ لمن أراد أن يراه صعبا، وفي الحقيقة هو أمر سهل، فإذا

---

[19] "**اللهم إني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال وصدق التوكل عليك وحسن الظن بك**" تخريج السيوطي لأبي نعيم في الحلية عن الأوزاعي مرسلا وللحكيم عن أبي هريرة
"**إن أفضل العبادة حسن الظن بالله يقول الله لعبده أنا عند ظنك بي**" أخرجه البغوي عن أبي الديلمي
"**إن حسن الظن بالله من حسن عبادة الله**" لأحمد والترمذي وللحاكم في المستدرك على الصحيحين عن أبي هريرة
"**حسن الظن من حسن العبادة**" لأبي داوود وللحاكم في المستدرك على الصحيحين عن أبي هريرة
"**لا يموتن أحد منكم إلا و هو يحسن الظن بالله تعالى**" لأحمد ومسلم لأبي داوود وابن ماجه عن جابر ابن عبد الله
"**أكبر الكبائر سوء الظن بالله**" للديلمي في مسند الفردوس ابن عمر

تجلّى الحقّ ﷻ وبالوسائط وكان ذلك مع الإذن الصحيح، يكون هذا الأمر، وهو ليس مخصوصا بواحد دوناً عن آخر، فهو أمر الله، فالله ﷻ هو الّذي يتجلّى وهو الّذي يدرّس النّاس على وجه الحقيقة، وذلك على ألسنة مخلوقات له، اصطفاها لنفسه، فلذلك هذه مزالق، وخاصّة إذا انفرد الفقير بنفسه، وقال: أنا أستطيع مواصلة طريقي لوحدي مع الكتاب، وهو لم يُفطم بعد، أي لم يبلغ الفتح الأكبر، فهذا الفقير أو هذه الفقيرة سريعا ما يضع قدمه في مزلق من هذه المزالق، ونتيجة ذلك معروفة، والمزالق كثيرة جدّا، ولكنّ الله ﷻ يعرّفهم للمكلّف، فيراهم في قلبه، وبالتّالي يوجّه ذلك الإنسان التّوجيه الصّحيح ليجنّبه كلّ ذلك، فمن أراد أن يقرأ "جواهر المعاني" فيأخذ حذره، هو كلام الشّيخ ﷺ وليس هنالك ما هو أعلى من كلام سيّدي أحمد التّجاني ﷺ، ومع ذلك من أراد أن يقرأه فليرجع بالنّظر إلى من هو مكلّف بتربيته ومن يعتقد فيه أنّه قدوة له، لأنّ كلامه هو الّذي يحصل به النّفع العميم، وأمّا أن تفهم كلام الشّيخ كما هو موجود في الجواهر، ثمّ تحاول أن تطبّقه، فكأنّنا أصبحنا غير محتاجين للمربّي، ونعود كما كنّا في الأوّل، ونكتفي بالجواهر فقط، وهذا غلط، وكذلك الأمر بالنّسبة للرؤى، فكلّ من انفرد بنفسه في ما يخصّ الرّؤى أو الفهوم، أو حتّى المعاينات والمكاشفات، فإذا انفرد الإنسان بفهمه وظنّ أنّ ذلك يكفيه يكون قد وضع قدمه على أوّل المزلق، ولذلك سمّيت "مزالق"، لأنّ المزلق هو كلّ ما يسير بك من أعلى إلى أسفل، ويرمي بك بعيدا عن الطّريق السويّ، وأثناء انزلاقك فيه لا تجد ما تتمسّك به، ولا تع شيئا إلاّ أنّك تهوي، ولذلك خذوا حذركم، فكما كانت الرّؤى تعبّر، فإنّ كلام المشائخ كذلك لابدّ له من إذن خاصّ، كي يتمكّن الإنسان من أن يقابله بفهم خاصّ، ويكون له فيه قدوة، ويستعين كذلك بالإخوان الّذين لهم هذا العلم ولهم هذا الإذن، حتّى يكون طريقه على قدر من الصحّة ولا يقع في هذه المطبّات والمزالق، وإلاّ فإنه واقع في أحدها لا محالة، فالأمر صعب، وليس بالهيّن، ولهذا يقال: إنّما العلم من أفواه

الرّجال، علما ومكاشفة ومعاينة ورؤى، فلابدّ أن ترجعها لمن يستطيع أن يوجّهك ويوجّهها كلّها إلى الله ﷻ، وبهذا لا يقع الغلط، وإنّما يقع الغلط لكثير ممّن ظنّ أنّه لا يحتاج إلى من يريه أو ينير له الطّريق، وإن كان الشّخص من كان، ومهما بلغت معرفته، لأنّ الإنسان غير معصوم من الخطأ، وإن كان مفتوحا عليه، وقد رأيت من جاء يوما ما من المغرب لمقابلة سيدي الحاج محمّد القمارﷺ، وكان الرّجل يلبس لباسا من أرفع ما يكون، مع تلك الهيأة الوقورة واللّحية وما إلى ذلك، وكان سيدي الحاج يتوضّأ وقتها، وكان لابسا ما يلبسه عادة من عمامة وقميص إلى آخره، ﷺ وأرضاه، وهذه القصّة لكي تأخذوا حذركم من مكر العارفين لأنّه لا مجال للّعب معهم، دخلﷺ إلى الدّار ولم يجلس في مكانه المعتاد على الأريكة بل على أريكة أخرى وبهيأة الصّلاة، ثمّ دخل الرّجل الّذي سمع عن سيدي الحاج فجاء ليزوره، ولم يتكلّم سيدي الحاج إلاّ بضع كلمات، وأكمل الرّجل بقيّة الحديث عن صلاة الفاتح عوضا عنه، وكان ﷺ سيحدّثه عن هذه الصّلاة ليوسّع له دائرته، بما أنّه جاء من مكان بعيد ليزوره، ولكنّه حرم نفسه، إذ لم يفسح له المجال ليحدّثه، فلم يربح، وهذه الأمور من أصعب ما يكون، لأنّ العارف بالله ليس له غرض مع الله تعالى، فإذا جئت وسمعته، ومن دون أن ينظر لك، فإنّ أذواقك كلّها ترتسم في باطنه، فيشاهدها وكأنّه يشاهد تلفازا، وهذا من الله، وليس المقصود أن يقال أنّه يعرف، ولكنّ المقصود هو الكيفيّة الّتي تجعله كالمرآة أمامك ليجعل دائرتك أوسع ويوجّهك إلى الله تعالى، وهذا علم ربّاني، فلو جاء هذا الرّجل إلى سيدي الحاج القمار ليسمع منه كلمات في صلاة الفاتح لما أغلق، لأخذ منه ما لم يأخذه عمره كاملا، وأعطاه درجة في الفهم يظلّ بقيّة عمره وهو يشرب منها ولا ينتهي ذلك، ويدخله في بحر جديد، ولكنّه لم يسمع منه، فقد حُجب بنفسه، حين لم يعزم على القدوم إلى الرّجال لكي يتعلّم، وسيدي الحاج تركه ولم يبال، فكما يقول ﷺ: منذ متى خُلقت الحقيقة المحمّديّة؟ منذ ذلك الزّمان، من حيث "الله" هو "الله"، بدون بداية، منذ

ذلك والحقيقة المحمّديّة موجودة، فاسمع للشّيخ القمارﷺ بماذا يحدّثك، قال: منذ هو هو والحقيقة المحمّديّة معه، خلقها وأوجدها ﷻ، وهنا توجد مسألة خطيرة جدا في المعرفة بالله تعالى، أي من ذلك الوقت وﷻ وملائكته يصلّون على النّبيّ ﷺ، يصلّون على الحقيقة المحمّديّة، وهو خلقها قبل الملائكة، هذا ما قاله ﷺ، هذه قد اتفقنا فيها، قد خلقها ﷻ قبل الملائكة، وهم يصلّون عليه، ومنذ متى خلقها الله؟، الله ﷻ موجود بلا بداية ولا نهاية، إنّما هو الأزل، منذ أن أوجد الحقيقة المحمّديّة وهو يصلّي عليها، وملائكته يصلّون عليها، فإن صلّيت أنت بصلاة الفاتح لما أغلق مرّة في تلك المرّة، يحصل لك ثواب جميع ما صُلِّي به على رسول الله ﷺ، منذ بدأ الله والملائكة يصلّون على الحقيقة المحمّديّة، كلّ ذلك يكتب لك في صحيفتك، هذه المعلومة قد أرويها لكم أنتم بهذه الطريقة، ولكنّ المفتوح عليه في المعرفة الربّانيّة يراها كـ"شطحات معرفيّة" إن صحّت العبارة، من عند الشّيخ القمارﷺ، ولا يتصوّرها العقل، فهذه بذاتها كما رويتها لكم تقريبا، يمكن أن نجعلها موضوع سهرة فيخرج لنا منها الكثير والكثير ولا ينتهي ذلك، ولماذا؟ لأنّها خرجت من فم عارف بالله، ﷺ وأرضاه، ثمّ نظلّ جميعنا نشرب منها كلٌ على حسب سعته وإلى آخر الزّمان، فهذا أمر غريب حقّا، وهذا كمثال فقط، ولذا قلنا العلم من أفواه الرّجال، وخاصّة من أفواه الرّجال المأذونين في هذا العلم بذاته، وهو ما يسمّى بالباطن وباطن الباطن، فيتجلّى لهم الحقّ ﷻ عبر الوسائط بهذه العلوم، فيتقنونها بمعرفة تامّة وبحذافيرها، ولا يستطيع أن يقوم بهذا من كان عالما أو فقيها لأنّه ليس له دخل في هذا الأمر بتاتا، إنّما هذه مرتبة توجيه القلوب إلى الحضرة الإلهيّة، وكذلك مرتبة الغوص في بحور المشائخ ﷺ وأرضاهم، وفي أحوالهم وفي أذواقهم، وهذا أمر عالٍ وعالٍ جدّا، وهو ما يسمّى بالخصوصيّة في الطريقة، فقط ...

فقير: سيّدي، لو أنّ بعضهم كان ممّن يرى شيخه مناما، فهل في ذلك خطب ما؟...

البيان: لو أنّ الإنسان يرى شيخه أو قدوته أو أيّ شخص على مشربه، أو حتّى يرى شخصا فيأتيه خاطر في قلبه أنّه هو رسول الله ﷺ، أو أنّه هو الشّيخ رضي الله عنه، إلخ، فهذه مسألة كبيرة وخطيرة، فمن كان له هذه الرّؤى فهي حجّة عليه، وخاصّة إذا كان فيها أمر بفعل شيء ما أو نهي عن فعل شيء ما، ثمّ لا يتّبع ذلك الأمر أو ذلك النّهي، فهذا أمر صعب للغاية، لأنّ العارف عندما يأتينا في المنام، فقد أتانا حقّا، وتكون تلك زيارة حقيقيّة، فرؤية المنتقلين من الصّالحين ليست بالأمر الهيّن أو السّهل، فإن كان في حالة بشارة فهي بشارة عظيمة يفرح بها الإنسان، وإن كان غير ذلك فالحذر الحذر، كأن يراه على هيأةِ غضبٍ أو هيأةٍ غير حسنةٍ فذلك إنذار، وعلى هذا الفقير أن يأخذ حذره كثيرا، فذلك أمر صعب، وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يستدرك ما فاته، وليتقن الصّلوات الخمس وعلى صلاة الصّبح وعلى الأوراد، وليستقبل القبلة أثناء قراءة ورده، وليجتهد في الشروط الكماليّة للأوراد، وليسيطر على فكره أن يبحر به في هذا الاتجاه أو ذاك، وليعرف أنّه قد دخل في الخصوصيّة وليس من العوامّ، ولذا لابدّ له أن يكون نشطا في أمور دينه وأن يأخذ بالعزائم على قدر طاقته، وخاصّة لابدّ أن يكون ذهنه متيقّظا للأمور الّتي قد تشغله عن الله تعالى وقد تُسبِّب له الضرر في دينه، ولذلك فرؤية المشائخ في المنام توجب على الإنسان أن يأخذ حذره منها ولا يستهين بها، فإن كانت بشارةً، فهي بشارةٌ، يستبشر بها ويقوّي عزيمته أكثر من ذي قبل، وإن كانت غير ذلك، فذلك أمر صعب، وليحاول أن يستدرك بسرعة ما فاته، وهذا ما يخصّ رؤيا المشائخ في المنام ...

فقير: سيّدي فيما يخصّ رؤية الرّسول ﷺ، هل يا ترى هنالك وجه محدّد يقابلنا به ﷺ؟ ...

البيان: لا، قد يأتي ﷺ بأيّ صورة، وقد يكون ذلك بصور لا تتوقّعها ولا تخطر لك على بال، فإذا تحقّقت في باطنك، وأنت في النّوم، أنّ ذلك رسول الله ﷺ، ثمّ استيقظت وعلمت أنّه رسول الله ﷺ، فإنّه رسول الله ﷺ، لا يهمّ على أيّ هيأة جاء، لكن، إنّما تلك هيأتك أنت، لا أعنيك أنت وإنّما الّذي رأى المنام، أي على حسب صفاء باطنك، وبحسب نفسك وبحسب الحالة النّفسيّة والحالة الباطنيّة الّتي أنت عليها، إنّما تلك صورتك أنت، الرّائي، وهي مرآتك، وكذا ترى أنواعا من الرّؤى، وذلك بحسب صفائك، وإذا كانت الرؤيا متعلقّة به ﷺ، ومباشرة عند استيقاظك منها قلت "هذا رسول الله ﷺ" فهو رسول الله فعلا، وقد يأتيك ﷺ في أيّ صورة كانت، سواء الصّورة العربيّة المعلومة أو على أيّ صورة من صور الأشخاص كصورة عاديّة آدميّة، وبأثواب مختلفة ...

فقير: وهل يكون ذلك مرتبطا بالأسماء، مثلا شخص اسمه محمّد ...

البيان: هذا يرجع إلى ما أوّلتَ به أنت ذلك المنام في قلبك، عند استيقاظك من النّوم، ما تجده في قلبك فذاك هو، أمّا أن تأوّلها وأنت متشكّك في فحوى هذه الرؤيا، فجِدْ من يعينك على تأويلها ...

فقير: ومن رأى الشيخ المربّي وهو يقول له: قد أعطيناك كسوة ...

البيان: الكسوة شيء حسن في المنام، وهو لباس التّقوى إن شاء الله ...

فقير: على ذكر الكسوة، رأيت مرّة في المنام سيدي الحاج محمّد القمار رضي الله عنه وكان حينها يلبس سروالا ...

البيان: يجوز أن تراه في كسوة، أو في حلّة معيّنة، يجوز ذلك ...

فقير: في السّنة الأولى منذ دخولي للطريقة، رأيت في المنام سيدي الحاج محمّد القمارﷺ، وكان عمري حينئذ قرابة العشرين سنة، وكنت سائرا معه إلى أن التقينا سيدي الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ، وكان هنالك كتاب سوق الأسرار في المنام ...

البيان: كلّ من أخذ الطريقة عن سيدي الحاج الأحسنﷺ وبطبيعة الحال عن تلميذه سيدي الحاج القمار ﷺ، إلاّ ويوصله إلى النبيّ ﷺ، فهذا مشرب عظيم جدّا، لابدّ وأن يوصله، ولا مجال للّعب في هذا الأمر ...

فقير: طوعا أو كرها ؟ ...

البيان: إن كان كرها فهو إنّما يكون مع التّعب الشديد، ويكون مستَكرَهًا على ذلك، فلذلك على الواحد منّا أن يبتعد عن التّعب والشقاء، وليأتي طوعا فهو خيرٌ له، أسلم تسلم، وأما في مسألة قراءة القرآن، أو في قراءة العلم عموما، فلا يستطيع الإنسان أن يتعلّم من المصحف مباشرة، لا يمكنه ذلك، فقد يخطأ في نقطة فيخرج كلّ شيء عن معناه، وبالتّالي لابدّ له من شيخ يتتلمذ له بأن يقرأ عليه فيصلح له ما يجب إصلاحه، كذلك الرّواية، كقول سيدي الحاج ﷺ: أذنتك في مرويّاتنا، فالمقصود أنّه حتّى العلم الّذي قاله سيدي الحاج محمّد القمارﷺ رواية، فقد قال: أذنتك فيه، فهذا إذن خاص، فمن كانت له بعض المرويّات الّتي دوّنها عن سيدي محمّد القمار ﷺ فلا يستطيع أن يتوسّع فيها، فلا يقول مثلا أنّه كان ﷺ ذوقه كذا ومذهبه كذا، إلاّ بإذن، أي إذا كنت مأذونا إذنا خاصا، لذلك يفتح له في تلك المرويّات، أي هو مأذون أن يتوسّع فيها دون أن يحرّفها، منها هي يستطيع أن يأخذ ما يحتاجه ويزيد فيها ويكبّرها ويبنيها من دون أن يحرّفها، مع

الاحتفاظ بالأساس عند البناء، هذا هو عملهم ﷺ، وأمّا غيرهم فإذا دخل في هذا الأمر، وبحسب أذواقه وبحسب فهومه، فقد يضع عشرة أشخاص مثلا، فترى أحدهم قد ذهب بها في اتجاه جعلها كعلم الاجتماع، والآخر يجعلها فقهًا فقط، والآخر يتقدّم بها قليلا فيجعلها من التّصوّف القديم للقوم، وهكذا دواليك، وأمّا من كان مأذونا فيظلّ محتفظا بالذّوق، يظلّ الذّوق هو هو، لا يتغيّر، فما معنى الإذن ؟، إنّما الإذن هو ضمانة الآذن بأن يبقى الأمر متواصلا على نفس النّسق وبنفس الوتيرة ونفس الذّوق وبنفس العلوّ، ويزداد في التّوسعة وفي العلوّ، لأنّه لا ينقص أبدا، هذا هو معنى الإذن، ويكون الآذن معه، فكهذا العارفون، تكون أُذونهم صعبة للغاية، فعند الطّبع لا يستوي الطابَع المتوسّط والطّابَع الجيّد، ومازالت علومهم وأسرارهم تخرج إلى يوم القيامة، فقد قال سيدي الحاج الأحسن ﷺ أنّ كلّ من أخذ عنه فلابدّ وأن يوصله إلى رسول الله ﷺ، لا مجال للّعب في هذا الأمر، وقالها سيدي الحاج القمار ﷺ أيضا، أي تلك درجة عالية جدّا في المعرفة بالله تعالى، والحمد لله، وهنيئا لنا وهنيئا لكم، لذلك على الواحد منّا أن يكون دائما على العهد وأن يكون مع الهمم والأذواق العالية، ولا يكون إلاّ الخير إن شاء الله، ولنقرأ قليلا من كتاب الجواهر تبرّكا فقط ...

السّارد:

بسم اله الرّحمن الرّحيم.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

قال شيخنا ﷺ وأرضاه ونفعنا به آمين في كتاب الجواهر الباب الخامس الفصل الثاني: في الأحاديث النبويّة وعلومه الاختصاصيّة المصطفويّة

ثمّ إنّ حسن الظنّ بالله تعالى وإن كان صاحبه منهمكا ...

البيان: "منهمكا" هنا المقصود منها منهمكا في المعاصي وفي ما لا يرضي الله ﷻ ...

السّارد:

وكان ذلك غريزة قلبه يفيده ذلك مع الله تعالى ولا يخرج حسن ظنّه بالله تعالى باطلا.

البيان: أي أنّ حسن الظنّ بالله تعالى يفيد صاحبه، وإن كان هذا الإنسان منغمسا في شهواته أو في المخالفات، فإنّه مع ذلك كلّه، أي مع مخالفاته، فإنّ حسن ظنّه بالله تعالى ينفعه...

السّارد:

لكن في بساط الشّرع يطرد عن ذلك ويزجر إلى الخوف من الله والتّخويف ويسمّون حقيقته اغترارا بالله تعالى ...

البيان: إذن فالاغترار بالله تعالى أو الغرور إنّما هو اعتقاد الأمر على خلافه، فإنّه في بساط الشّريعة، إن اعتقدت أنّك تخالف وتخالف وتعيد المخالفة ثمّ لا ترى إلاّ الله غفورا رحيما، فإنّك تسمّى بذلك مغرِّرا بنفسك، تسمّى مغرورا ومغرّرا بنفسك ومعتقدا للأمر على خلافه، لأنّك لم تجمع مع تلك الصّفتين، أي صفتي الغفران والرّحمة، لم تجمع معهما صفة "شديد العقاب"، فتكون بذلك قد خرجت عن بساط الشّريعة ونسيت قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[20]، فمن هنا تسمّى مغرِّرا بنفسك وبالتالي تخاف على نفسك لأنّ العاقبة غير مضمونة عند أيّ أحد من النّاس، فالنّاس كلّهم

[20] سورة الأعراف الآية 99

مخلوقات الله ﷻ فلا مجال للّعب معه، ففي بساط الشّريعة تخاف على نفسك الهلاك والعياذ بالله تعالى، اللّهمّ احفظنا، ثمّ قال ...

السّارد:

قال الشاعر المشهور وكانت حالته معروفة: قال بعض الصّالحين: رأيته في النّوم بعد موته في حالة حسنة محمودة، قال: قلت له: ما فعل الله بك ؟ ...

البيان:

أنظروا أدب الشّيخ ﷺ، فلم يرد أن يذكر اسم الرّجل كقوله فلان ابن فلان، ولم يسمِّهِ وإن كان معروفا، فقد كان مسرفا على نفسه في الدّنيا، فلمّا توفّي، رآه بعض الصّالحين فسأله: ما فعل الله بك ؟، وقد رآه على حالة حسنة، فقال له غفر لي بأبيات من الشّعر كنت أقولها ...

السّارد:

قال: غفر لي، قلت: بماذا؟، قال لي: بأبيات قلتها عند موتي، قال: قلت له: ما هي؟ قال لي: هي عند رأسي في الوسادة ...

البيان: هي تحت الوسادة، وضعها قبل موته، وقد جاء بهذه الإشارة دلالة على أنّ الرؤيا صحيحة لا ريب فيها، وأنّ القصّة حقيقيّة، وهو على كلّ حال من الصّالحين، جاءه مناما في رؤيا صادقة، فذهب للوسادة وأخذ الورقة وقرأها، فتلك علامة ترمز إلى أنّ القصّة صحيحة ...

السّارد: قال فأتيت إليها فوجدتها أربعة أبيات وهي:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة ...

البيان: أنظروا هنا، قوله "يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة" أي إن عظمت في التّعاظم أي في بشاعتها وفي كبرها في حدّ ذاتها، وكثرةً أي مع تكاثرها، فهي بالتّالي ذنوب كثيرة وكبيرة ...

السّارد:

**يَـــــا رِبِّ إِنْ عَظُمَـــــتْ ذُنُـــــوبِي كَثْـــــرَةً**

**فَلَقَـــــدْ عَلِمْـــــتُ بِـــــأَنَّ عَفْـــــوَكَ أَعْظَـــــمُ**

البيان: أي أعظم وأكبر وأكثر ...

السّارد:

**أَدْعُـــــوكَ رَبِّـــــي بِمَـــــا أَمَـــــرْتَ تَضَـــــرُّعًا**

**فَـــــإِنْ رَدَدْتَ يَـــــدَيَّ فَمَـــــنْ ذَا يَـــــرْحَمُ**

**إِنْ كَـــــانَ لاَ يَرْجُـــــوكَ إِلاَّ مُحْسِـــــنٌ**

**فَمَـــــنْ ذَا الّـــــذِي يَرْجُـــــو المُسِـــــيءُ المُجْـــــرِمُ**

البيان: المراد منه: لو أنّه إن كان لا يترجّاك إلاّ المحسنون فالمجرمون مثلي أين يذهبون بذنوبهم ...

السّارد:

**مَـــــا لِـــــي إِلَيْـــــكَ وَسِـــــيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَـــــا**

**وَجَمِيـــــلُ ظَنِّـــــي ثُـــــمَّ أَنِّـــــي مُسْـــــلِمُ**

البيان: ما لي وسيلة إليك إلاّ الرّجاء، وجميل ظنّي، لقوله ﷺ في الحديث القدسي: «**إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وإن شرا فشر**»[21]، وهنا جاء بها الشّيخ رضي الله عنه في كيفيّة أنّ حسن ظنّ العبد المسرف على نفسه بالذنوب يفيده، فذلك ينفعه، وجاء بها في سياق مسألة كيف أنّ عبدا مسرفا على نفسه قبل أن يموت قال هذه الأبيات، فرآه بعض الصالحين في الرّؤيا وقال له: بما غفر لك؟، قال: بأبيات كنت أقولها، ومن جملة ما قال في هذه الأبيات، هذا المقصد أو الشّاهد ألا وهو حسن ظنّه بالله تعالى

---

[21] تخريج السيوطي للطبراني في المعجم الأوسط ولأبي نعيم في حلية الأولياء عن واثلة
**"أمر الله عز وجل بعبد إلى النار فلما وقف على شفتها التفت فقال أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسن فقال الله ردوه فأنا عند ظن عبدي بي فغفر له"** تخريج السيوطي للبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة
**"قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرا فله وإن ظن شرا فله"** تخريج السيوطي لأحمد في مسنده عن أبي هريرة
**"قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء"** تخريج السيوطي للطبراني في المعجم الكبير وللحاكم عن واثلة
**"يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني"** تخريج السيوطي لأحمد في مسنده عن أنس ومسلم وللترمذي عن أبي هريرة
**"يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"** تخريج السيوطي لأحمد في مسنده وللبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.
**"يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أقبل إلي يمشي أقبلت إليه أهرول"** تخريج السيوطي لمسلم عن أبي هريرة

مَـــــا لِـــــي إِلَيْـــــكَ وَسِـــــيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَـــــا

وَجَمِيـــــلُ ظَنِّـــــي ثُـــــمَّ أَنِّـــــي مُسْـــــلِمُ

أي أنّه قال: "أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله"، وزاد على ذلك الرجاءَ بأن يغفر له، وحسُن ظنّه بالله تعالى، فالله ﷻ لم يخيّبه، وفي هذه نرى أنّ توبة المؤمن مقبولة قطعا حتّى عند الغرغرة، أي ولو عند تحقّقه من الهلاك فتوبته صحيحة مقبولة لا غبار عليها، وهو بعكس الكافر[22] الذي لو وصل الغرغرة فلا تقبل توبته

السّارد: غفر الله بهنّ وبالجملة فالمعوّل عليه في بساط التّحقيق

البيان: وها قد عدنا إلى التّحقيق، والمراد منه: اسمعني لأنّ ما سأقوله هو المعوّل عليه على وجه التّحقيق، أي أنّه حقّ

السّارد: أنّ من لقي الله يحسن الظنّ به في العفو عن ذنوبه وإن كان من أكبر المنهمكين لقي من ربّه عفوا

البيان: إذن فالمعوَّل عليه في بساط التّحقيق أنّ من كان يحسن الظنّ بالله تعالى ثمّ لقي الله وهو كان منهمكا في المعاصي والشرور، ولقي الله بحسن الظنّ هذا، فإنّه يلقى من الله ﷻ العفو، وكما ورد في الحديث النبوي الشريف: ما ظنّكم بعبد فعل كذا وكذا، قالوا: مآله النّار، قال: لا، لأنّه كان يستغفر الله ﷻ، وهذا هو الختام.

[22] "**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**" تخريج السيوطي لأحمد في مسنده وللترمذي وابن ماجه ولابن حبان وللحاكم في المستدرك وللبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر
"**من تاب إلى الله قبل أن يغرغر قبل الله منه**" تخريج السيوطي للحاكم في المستدرك عن رجل

اللّهم اغفر لنا، اللّهمّ ارزقنا حسن الظنّ، لأنّه كما قال ﷺ: **خصلتان ما فوقهما من خير، حسن الظنّ بالله وحسن الظنّ بعباد الله**، والعكس كذلك وهو سوء الظنّ بالله وسوء الظنّ بعباد الله، والله ﷻ يقول: « **قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرا فله وإن ظن شرا فله**»[23]، نسأله اللّهمّ أن يوفّقنا ويرزقنا حسن الظنّ به، وأن يقوّينا عليه ويقوّينا على النّفس والهوى والشّيطان، ويجعلنا من التّائبين الرّاجعين إلى الله تعالى في كلّ نَفَس وحين، وأن يثبّتنا على هذه الطريقة الأحمديّة العظيمة وعلى محبّة مشائخنا وعلى محبّة الله وعلى محبّة رسول الله، بجاه وجوهكم هذه، آمين.

[23] تخريج السيوطي لأحمد في مسنده عن أبي هريرة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

# الاستغفار ثلاث

البيان: استغفار العوامّ يكون من المعاصي، عملتُ كذا وأخطأتُ في كذا وعصيتُ ربّي في كذا، فأستغفرُ الله وأسأله أن يسامحني ويغفر لي، وأمّا استغفار الخواصّ فيكون من خطور المعصية في البال، إذ ربّما يكون أطال التّفكير فيها واستحلاها، أو تصوّر أنّه يفعلها، والْتذّ بذلك أو حتّى لم يلتذّ بذلك التّصوّر، فمجرّد خطور المعصية في باله هو ذنب في حدّ ذاته، ولذا فهو يستغفر الله ﷻ من خطور المعصية في قلبه، وهذا استغفار الخواصّ، وأمّا استغفار العارفين أصحاب سيّدنا ﷺ فيكون من خطور غير الله في قلبه، أو من رؤية غير الله أصلا، وأصحاب الشّيخ ﷺ كلّهم لم يبق لهم شيء إلاّ الله، وهو مقام صعب للغاية لأنّ صاحبه لا يرى إلاّ الله، فانهدمت عنده أركان كلّ شيء، وفي البداية يكون فيه الخوف وفيه الرّعب وفيه الوحشة، حتّى يستأنس بساداتنا الفقراء، ويستأنس بكلام المشائخ، ويستأنس بالضّمانات النبويّة، ويستأنس بكلام العارفين، ويستأنس بالهواتف الرّبّانيّة الّتي تكلّمه، وخاصّة عن طريق القرآن والحديث وكلام العارفين، أمّا في بدايته فهو صعب جدّا، ويكون الإنسان دائما في عالَم خارج عن هذا العالَم، وهذا صعب وصعب جدّا؛ إذ أنّه لا يرى إلاّ الله، وهو استغفار العارفين، وهو استغفار من رؤية غير الله، أو خطور غير الله في قلبه، فلا يتحدّث عن خطور المعصية أصلا فهو لا يرى لا معصية ولا طاعة، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[24]، وقال: أتعرف تفسير

[24] سورة الصافات الآية 96

"لا حول ولا قوّة إلا بالله"؟، قال: لا أعرف، فقال: "لا حول لي على طاعتك إلاّ بك، ولا قوّة لي على معصيتك إلاّ بك"، أو كما قال ﷺ في تفسير الحديث، هذا في الحديث وأمّا في القرآن فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[25]، أي خلقكم وخلق أيضا ما تعملون، ويقول سبحانه وتعالى أيضا: ﴿**مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾[26]، وقبلها قال ﷻ: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ**﴾[27] وقال ﷺ في ما معناه: اعملوا ولا تتّكلوا، فلمّا قيل له ماذا نعمل؟، قال ﷺ: كلّ ميسّر لما خُلق له، فلو جمعنا كلّ هذا لوجدناها حالة العارف، فحالة العارف أنّه لا يرى إلاّ الله ﷻ فاعلا في كلّ الأمور، فينسب كلّ المليح إلى الله وينسب كلّ القبيح إلى نفسه أدبا مع الله تعالى، وليس لنا حجّة، العارف ليس له حجّة فإذا رأى، عافاه الله من ذلك، معصية فإنّه يفعلها، ثمّ يفاض عليه من الخوف ومن الرّعب ومن الرّجوع إلى الله ﷻ ومن التّوبة ما لا يعلمه إلاّ الله، وإن لم يفعلها فهي معصية في حقّه، لأنّه يراها، وهي معصية من نوع آخر، وهو أمر صعب جدّا، فاستغفار العارفين إنّما هو من خطور غير الله ﷻ في قلبه نفَسًا واحدا، ولذا قال: إحساسك بوجودك هو ذنب، أي ظنّك أنّك موجود هو أيضا ذنب:

**إِذَا قُلْتُ مَا أَذْنَبْتُ قَالَتْ مُجِيبَةً**

**وُجُودُكَ ذَنْبٌ لاَ يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ**

[25] سورة الصافات الآية 96
[26] سورة النساء الآية 79
[27] سورة النساء الآية 78

وجودك، أي اعتقادك أنّك موجود، أي رؤيتك نفسَك وأنّك موجود ذاتا، فهذا ذنب لا يُقاس به ذنب، وهذا أكبر ذنب، لماذا؟ لأنّك غير موجود، ففي الواقع ما أنت إلاّ تجلّيات الأسماء الإلهيّة ﷻ، إذًا فلا يوجد إلاّ الله ﷻ، وهذا ذوق العارفين في الاستغفار فقط، وقس عليه في الصّلاة على النّبيّ ﷺ وقس عليه في "لا إله إلاّ الله"، فلماذا نذكر أورادنا؟ لأنّنا نعبد الله ﷻ، وهو العابد وهو المعبود، وبالوسائط، فالنّبيّ ﷺ هو الّذي يعبد لنا، والشّيخ رضي الله عنه هو الّذي يستغفر لنا وهو الّذي يصلّي على النّبيّ ﷺ، والشّيخ التّجاني رضي الله عنه هو الّذي قام بالأعمال كلّها، رضي الله عنه وأرضاه، لكنّه يتجلّى فينا محبّة فينا، ولكي يُظهر فينا أسراره ويُظهر فينا عبادته، أمّا العابد الحقيقي فهو رسول الله ﷺ والشّيخ التّجاني رضي الله عنه نيابة عنه، فحتّى الأوراد غير اللاّزمة كلّها قد ذكروها عوضا عنّا، فلا تتعبوا أنفسكم فيها، فلا تتعب نفسك مادام يقول لك: أنظر لي فقط، فأحبُّ أن أراك وتراني وتهتمّ بي فقط، فأنا أحبّك، وأنت مهتمّ بأشياء أخرى، فأنا الّذي جعلتُ هذه الأذكار، وأنا الّذي أتصرّف فيها، وأنا هو الذّكر والمذكور والذّاكر، وأنا الدّنيا بأسرها، فليس ثمّة غيري، وأنت منشغل بالبحث عن الذّكر، أيُّ ذكر هذا الّذي تبحث عنه؟! أنا الذّكر، ولو دقّقت النّظر قليلا لرأيتني، فهو ﷻ يغار من ذلك، فالله يحبّنا ﷻ، ويحبّ مخلوقه ويحبّ ملكه، ﷻ، وأعظم معرفة أن لا تهتمّ إلاّ بالله، أن تراه في كلّ لحظة من الزّمن، وإذا وفّقك للتّقوى والاستقامة مع هذا الذّوق فهذه نهاية النّهايات، وهنالك من يوفّقه لهذه الرؤيا ومازال لم يوفّقه لكمال الاستقامة، فالأمر صعب، وهنالك من وفّقه لكمال الاستقامة وهو لم يفهم شيئا في الأصل من المعرفة بالله تعالى، يظلّ بعيدا كلّ البعد، وهنالك من يجمع له الاثنين معًا من باب الفضل والجود، فيوصله قليلا فقليلا، وتلك هي نهاية النّهايات، فذاك يسمّى "الشّيخ الكامل"، وتكون عنده هذه النّظرة فلا يرى إلاّ الله ﷻ والتّجلّيات الإلهيّة، وتكلّمه الهواتف الإلهيّة من كلّ حدب وصوب، من كلّ مخلوق ومن كلّ لسان ومن كلّ حركة ومن كلّ سكون،

وخاصّة إذا سمع القرآن فإنّه يسمعه من الذّات، يكلّمه جهارا ويسمعه جهارا، وكأنّهما شخصان يتحادّثان مع بعضهما البعض، فهذا حال العارف، إذا سمع القرآن فإنّه يسمعه من الذّات، وفي أيّ حال من أحواله، ولو كان على جنابة، عسى الله أن يسامحني وعسى أن لا أكون مخطئا، وأستغفر الله، وإن كان على جنابة فإنّه يسمع الكلام من قائله ﷻ، وليس كلاما يقرأه من ورقة المصحف، فهذا حالهم، فإن سمع "قال ﷺ" تعتريه الرّعشة والرّعدة فلا يعرف ماذا سيحلّ به في تلك اللّحظة، وماذا سيقول له ﷺ في تلك اللّحظة، فإمّا أن يقول له "أنت أعزّ ما عندي" وإمّا أن يقول له "أعدَّ نفسك لحساب عسير"، فإمّا أن يتمّها له بالفرح أو، والعياذ بالله، يكون غير ذلك، فهو رسول الله ﷺ، وهو شيخنا، شيخنا هو رسول الله ﷺ، فإذا سمعت "قال ﷺ" فإنّه يكلّمك أنت بالذّات، يا فلان أنا رسول الله أكلّمك فاسمع، وهو يكلّمك بالذّات ووحدك، وتعرف أنّه يحدّثك عن سيارة الأجرة خاصّتك وعن إطاراتها وكيف فرحت أو غضبت من الحريف الّذي معك، في كلّ لحظة يكلّمك جهارا ويعطيك الميزان لكلّ ذلك، ويعطيك العدد الّذي تستحقّ، ويتركك في صعود ونزول بين الخوف والرّجاء، إذًا فمحمّد رسول الله ﷺ يخاطبك، وكذلك بالنسبة للقرآن، فالرّبوبيّة هي الّتي تخاطبك، هذا فهم وذوق كلّ فقير أخذ العهد عن سند صحيح واصل متّصل وهو على العهد بقلبه ونيّته، فيكون هذا حاله، ومآله المعرفة التّامة بالله تعالى، وأنتم كلّكم فيها غرقى، وهي مخفيّة عن الأغلبيّة، وظاهرة عند البعض، وذلك لكي لا تتعبهم، لأنّ فيها حملا ثقيلا جدّا، وقليل من أصبح معتادا عليها وفرحا وناشطا بها، كما هو حال بعض الفقراء، قِبلها وفرح بها وليس له أيّ قلق من ناحيتها، فهنيئا له، وهذا مثال فقط، لكنّ الأمر صعب، وتجلّيات الجلال صعبة، تندكّ بها أركانك، ولهذا قيل "لا يُطلب الفتح"، فلا تطلبوا الفتح، بل أطلبوا من الله التّوفيق بأن يميتنا على هذه الطّريقة التّجانيّة، وبما أنّ لك أورادا ووظيفة وهيللة وخمس صلوات فلا تطلب بعد ذلك أيّ شيء، تشبّث

بها، وافرح بما أعطاك الله واطلب الصحّة والعافية والسّتر والكمال بحسن الخاتمة والنّظر في وجوه أشياخنا ﷺ، ومجالستَهم في الآخرة، وأن نكون من حزبهم، "**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"[28]، ولا تطلب شيئا زائدا على ذلك فأنت واصل، فلا تطلب الوصول، ولا تتشوّف إلى الوصول وإلاّ أهلكت نفسك، وأتعبت نفسك، وأخرجت نفسك عن الطّريق الحقّ، فإنّه تعب زائد، ومن الفتح ما يؤدي إلى الكفر، كثير من الفتوحات تؤدي مباشرة إلى الكفر بالله تعالى، فتكفر، عافانا وعافاكم الله، وتبوح بكفرك أمام النّاس وتتغيّر أحوالك ويتغيّر هندامك، وهناك من يقول مجنون ومنهم من يقول مجذوب وأنت على الكفر، لولا أنّ يد العناية في الأخير قد تجذب ذلك الإنسان من حضرة الشّياطين إلى حضرة الأمن والإيمان بالله تعالى، فاحذروا احذروا احذروا احذروا، ولا تتحامل على الفقراء ولا تتحامل على الأذكار ولا تتحامل في طلب أيّ شيء كان، بل كن عبدا لله، واطلب السّتر والعافية والمعافاة في الدّين والدّنيا والآخرة وصلاح الأحوال والموت على الإيمان وعلى الإسلام وملاقاة الله ﷻ وهو عنّا راضٍ، فقط، هذه نهاية النّهايات، ولا تتّبعوا من تضلّهم الشّياطين، هل هناك من يقرأ لنا ما تيسّر من سورة الزّخرف؟

فقرأ فقير من بداية السّورة إلى قوله تعالى ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْه وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[29]

البيان: اللّهم يا ربّ اغفر لنا واسترنا وارحمنا. ثمّ أنظر كلمة (الذّكر) كم وردت من مرّة، وكأنّه ﷻ يقول: أعطيتك الذّكر ولو حرمتك منه فهذا ما يصير معك بدون ذكري، وبعدها يقول ﷻ: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[30] ثمّ أنظر ماذا يفعل به هذا القرين حين يزخرف له

[28] تخريج السيوطي لأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه والترمذي عن أنس والبخاري ومسلم عن ابن مسعود
[29] سورة الزخرف الآية 59
[30] سورة الزخرف الآية 36

ويوسوس له فيهلكه ويدفعه نحو جهنّم، والعياذ بالله، فهذا ما أعطانا الله ﷻ، الذّكر، منشور الولاية، الذّكر منشور الولاية فمن أعطي الذّكر أعطي المنشور، هكذا قال ﷺ، ولذا وجب على الإنسان أن يحافظ ويحتفظ بذكره، لأنّ المولى ﷻجعل لك الذّكر لكي تتصدّى به للشّياطين الّذين سيشغلونك عن الله تعالى، وسيحملونك للمهالك، فالله ﷻ جعله لنا حفظا من كلّ شيطان مريد، فكلّه مجعول لكي يحفظنا به، والعهد، إذا قرأت وتأمّلت فإنّك تجد العهد وتجد الطّريقة وتجد الذّكر الّذي تذكره وتجد كذلك أنّ من لا يذكر الله ﷻ، ماذا يحصل له؟ يدخل له اللّعين ويوسوس له، فيُجنّ وتتغيّر حالته ويكفر، لتركه الذّكر، فالذّكر رحمة عظيمة أعطاها لنا المولى ﷻ، وبإذن صحيح ولله الحمد، فلذا وجب على الواحد منّا أن يحافظ على الذّكر، كالصّلوات والذّكر وتلاوة القرآن وكلام الرّسول ﷺ، يعيش كل هذا، ثمّ الخلوة، ما هي الخلوة؟ الزّاوية هي الخلوة، والفقراء هم الخلوة، فتزاوروا في الله، وأطعموا في الله، وتناصحوا في الله، وهو أن نشدّ أزر بعضنا البعض حتّى الممات، فهي حرب مع الشّياطين، وحرب مع الهلاك، والله حين يهدّد، يهدّد حتّى رسوله ﷺ، ولمن كلّ هذا؟ لنا نحن، كي نسمع نحن، من باب "اسمعي يا جارة"، والله حين يهدّد فإنّه ينبأ بالخطر، فإن كان هذا مع الرّسول ﷺ فماذا نقول نحن؟! الأمر صعب للغاية، فنسأل الله أن يحفظنا من كلّ هذا، ويأخذ بأيدينا، ويثبّتنا، ويتجلّى لنا بجماله ﷻ ويتجاوز عنّا فنحن ضعاف، ونطلب منه ﷻ ألاّ يجرّبنا ولا يمتحننا فنحن لا قدرة لنا على الامتحانات، ونسأله أن يأخذنا بضعفنا فقط، بمحض الفضل والجود والكرم. هل لديكم ما تقولونه؟

فقير: عديد الكتب تُختزل كلّها في بضع كلمات، وقد قيلت هاته الكلمات للتّو وانتهى الأمر ...

البيان: سيشهد العارفون ذلك، وهذه الكتب مازال سيطّلع عليها العارفون بالله تعالى، وسيُفتح للعارفين المفتوح عليهم بفتوح جديدة من كلام سيدي الحاج القمار ﷺ، ولا فخر، ولا فخر لأنّه شيخنا، ولا فخر لأنّه سرّنا، وكذلك كلّ الفخر بالله ولله، ومازال للعارفين بالله ما يسمعونه من ذلك، وسيّدي محمّد الكبير ﷺ ابن القطب البعقيلي وما أدراك، ﷺ، وهو قطب كذلك، كان يتحدّث وسط مجلس، وفي بعض الأحيان أحدّثه بالبعض من كلام سيدي الحاج القمار ﷺ، فيتغيّر بأكمله، حتى ولو كانت كلمة بسيطة، وجهه يتغيّر وترى النّور في صعود ونزول في وجهه جهارا، فلا يجد القدرة على التّنفّس، ويقول: أتسمعونه؟ أتسمعون ما يقوله؟ أتفهمون ذلك؟، ولا فخر، وفي مرّة من المرّات قلت له: لما رأى سيدي الحاج القمار ﷺ النّاس يقبّلون يديه في جامع الزّيتونة قال لهم: "أنا ليس لي نيّتكم"، وهي في ظاهرها كلمة بسيطة، ولكنّ سيّدي محمّد الكبير ﷺ خرج منها بدرس قاربت مدّته السّاعتان، وظلّ يكرّرها مرّات ومرّات، حتّى أدهشني بذلك، فلا تعلم ماذا وُضع له ﷺ من سرّ في تلك الكلمة، لأنّه يسمعها منه مباشرة، وظلّ يكرّرها، وكان يتكلّم وأنا أكتب، فهو بحرٌ، وسيسمع النّاس بسيدي الحاج القمار ﷺ مستقبلا، وسيُفتح لهم بجملة من جمل الشّيخ القمار ﷺ، يسمعها أحدهم فيُفتح له كلّ شيء، والحمد لله.

هل لديكم ما تريدون السّؤال عنه، وخاصّة من كان قادما من مكان بعيد، أرى أنّ لدينا هنا بعض الفقراء من "صفاقس"، من "الحنشة"، ومن منطقة "أولاد عمر"، وعديد الفقراء قد دخلوا الطّريقة التّجانيّة هناك، ففي آخر مرّة كان عددهم تسعة، تسعة كانوا ينتظرونني في الغرفة، ولما دخلت عليهم بُهتُّ، أنا الّذي بهتُّ وليسوا هم، إذ كلّهم في أعمار تتراوح بين الثمانية عشر والاثنتان والعشرين سنة، ولا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم وينظروا لي، فظللت أنظر وأقول:" لعلّنا في عصر

الصّحابة"!، كلّهم صغار في السنّ وكلّهم يعرفون الطّريقة ومتمسّكون بالدّخول إليها، سألتهم واحدا بعد واحد، وأمليت عليهم الشّروط فردا فردا، فلا تسمع إلاّ "قبلتُ، قبلتُ، قبلتُ"، حتّى بعد أن شدّدت عليهم، وقلت لهم أنّ من يتركها يهلك والعياذ بالله، ثم أذنت لهم في الطّريقة، ولا فخر، ببركة الشّيخ ﷺ وببركة سيدي الحاج القمار ﷺ، وكانوا تسعة أفراد في يد واحدة، يد فوق يد، وكلّما ذهبت لزيارة "للاّ عائشة[31]" أتقابل معهم، تبارك الله، يذكرون الوظيفة يوميّا تقريبا في بعض الأماكن، ويقرؤون الكتب الّتي تحدّثك عن سيدي الحاج الأحسن ﷺ وعن سيدي الحاج القمار ﷺ وعن التّجريد، فتخجل من ذلك، أنت تخجل وأنا أيضا أخجل، لأنّهم يفعلون ذلك ببداهة وبنيّة وبصدق، فالواحد منهم اندفع لذلك الأمر بالصّدق، فإذا تحدّث أحدهم تراني خجلا، لا إله إلاّ الله، ببركة الشّيخ ﷺ، فهنيئا لكم، ونسأل الله أن يزيد ويبارك ويتمّم بالخير، وهنا أيضا فقير من "سوسة"، نسأل الله أن يفتح عليهم وأن يهديهم وأن يفتح زاوية في مدينة "سوسة" إن شاء الله، هو وهذا الأخ أيضا من "سوسة" يذكران مع بعضهما البعض ويتعاونان على الجماعة، قائمان ويقرآن كتب الطّريقة ويعرفان الدّين، هنيئا لهما، وحتّى الأخوات والزوجات دخلن الطّريقة، وفي نشاط، نسأل الله أن يبارك ويزيد، فبعض الأحباب تعرفه من عشرين عاما وإذا ذُكر لك لقبه العائلي جهلته، لهما عشرون عاما مع بعضهما البعض ولا يعرف لقبه، والآخر كذلك، لماذا؟ كلّهم غارقون في "لا إله إلاّ الله" وليس لأحدهم الوقت ليسأل عن حرفة فلان، وعن لقب فلان، وماذا يكسب فلان، وهم دائما مع بعضهم البعض في أكل وشرب وذكر، بل وتجدهم من أعزّ الإخوان.



[31] هي السيدة عائشة إبنة سيدي الحاج محمّد القمار ﷺ.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

# الإمام مالك ابن أنس

القصرين في ١ ربيع الثّاني ١٤٣٠ هـ الموافق لِـ ٢٨ مارس ٢٠٠٩ م

درس من كتاب (تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك) للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله

السّارد: ترجمة الإمام مالك رضي الله عنه ...

البيان: وهو إمام المالكيّة، مالك ابن أنس ...

السّارد: نسبه رضي الله عنه، هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن غَيْمَان بن خُثَيْل ابن عمرو بن الحارث، ويقال الأصبحي ...

البيان: لا أعلم إن كان الأَصبَحي أو الأُصبُحي ...

السّارد: لما قاله أبو سهيل عمّ الإمام، نحن قوم من ذي أصبح، قدم جدّنا المدينة

البيان: "المدينة" أي المدينة المنوّرة، والله أعلم ...

السّارد: قدم جدّنا المدينة فتزوّج في التّيميّين، فكان معهم، ونسبنا إليهم، وعلى هذا يصحّ أن يُنسَب سيّدنا مالك إلى التّيميّين أيضا فيقال تيميّ، وأمّا والدته

فهي الغالية بنت شريك ابن عبد الرّحمان الأزدي، وأمّا جدّه مالك فمن كبار التّابعين يروي عن عمر وطلحة وعائشة وأبي هريرة وحسّان ابن ثابت ...

البيان: إذًا هو مالك ابن أنس ابن مالك، وجدّه مالك هو من كبار التّابعين، ويروي الحديث عن هؤلاء الصّحابة، كسيّدنا عمر ﷺ، وكونه من كبار التّابعين فقد أدرك الصحابة ...

السّارد: وهو أحد الأربعة الّذين حملوا سيّدنا عثمان ليلا، ومن الرّواة عنه ابنه أنس والد سيّدنا مالك ...

البيان: المراد منه أنّ أنسا يروي عن أبيه مالك ...

السّارد: وأمّا أبو عامر الجدّ الثّاني للإمام فقد كان من كبار الصّحابة فإنّه شهد المغازي كلّها مع رسول الله ﷺ ما عدا بدرا، كذا قاله بعض المؤرّخين، والصّحيح أنّه مخضرم من كبار التّابعين كما رواه الذّهبي ...

البيان: ما معنى مخضرم؟، المخضرم من عاش فترتين مختلفتين من الزمن، إذن فأبو عامر قد عاش الفترتين، أدرك بعض الصحابة وعاش مع التّابعين، فهو مخضرم من كبار التّابعين، إذًا فمالك ابن أنس ماذا يسمّى؟ ...

فقير: يسمّى من تابع التّابعين، فهو لم يدرك الصّحابة وإنّما أدرك قلّة من التّابعين، وهو شخصيّة مختلف فيها، فقد روى عن عائشة بنت سعد ابن أبي وقّاص ﷺ، وهي مختلف في كونها صحابيّة أم لا، لهذا اختُلف فيه هل هو من التّابعين أو من تابع التّابعين...

البيان: والأرجح أنّه من تابع التّابعين ...

السّارد: والصّحيح أنّه مخضرم من كبار التّابعين كما رواه الذّهبي وذكره ابن حجر في الإصابة[32] ...

البيان: لعلّه ابن حجر العسقلاني ...

السّارد: وأمّا ميلاده ﷺ، ففي تاريخ مولده اختلاف، والمشهور أنّه وُلِد سنة تسعين وقيل سنة ثلاث وقيل أربع وقيل خمس وقيل ستّ وقيل سبع وتسعين من الهجرة

البيان: على كلّ حال قد وُلد قبل مائة للهجرة ...

السّارد: واختُلِف أيضا في مدّة الحمل به فقيل كانت ثلاث سنين ...

البيان: ما معنى هذا؟ ...

فقير: أمّا مدّة الحمل العاديّة فتسعة أشهر، ولكن بالنّسبة له فقد نام في بطن أمّه ثلاث سنين أو أكثر أو أقلّ ...

السّارد: قال ابن المنذر: وهو المعروف، وقيل كانت سنتين، وأمّا مبلغ طلبه العلم ومبلغ إقباله عليه، فقد قال الإمام ﷺ: قلت لأمّي: أذهبُ فأطلبُ العلم، قالت: تعال فالبس ثياب العلم، فألبستني ثيابا مشمَّرة، ووضعتِ الطويلة –وهي شبيهة بالقلنسوّة– على رأسي، وعمّمتني فوقها ثمّ قالت: اذهب فاطلب الآن، قال ﷺ: وكانت تقول اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه ...

البيان: انظروا إلى هذه الأمّ، قالت له: تعلّم الأدب قبل أن تتعلّم العلم، ولماذا؟ لأنّك إذا تعلّمت الأدب أوّلا فسينفعك علمك بعده، لأنّه سيكون علما على أدب، أي علما على تقوى، فينفعك، وإذا تعلّمت العلم فقط، فربّما تُعطى

[32] "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حَجَر العسقلاني

الأدب بعده وربّما لا تُعطاه، فإذا لم تعط الأدب فسيرجع عليك علمك وبالا، لأنّك ستتكبّر به وتتعجّب به على النّاس وعلى نفسك، وربّما تطغى به، فتكون لك حينها حرفة العلم ولا يكون لك أدب العلماء، والمقصود ليس حرفة العلم بل المقصود هو تهذيب النّفس وإرشاد الخلق إلى ما يُصلح أحوالهم، وأمّ الإمام مالك كانت عارفة في هذا المجال، فقالت له: تعلَّم الأدب قبل تعلُّم العلم، فتعلُّمُ الأدب هو ما ينقص النّاس في هذه الأيّام، لأنّ الأدب هو الّذي تحصل به الفائدة

السّارد: وهذا حال امرأة من فُضليات النّساء وصالحاتهنّ، وقال أيضا ﷺ: كان لي أخ في سنّ ابن شهاب الزّهري، شيخ مالك ابن أنس، فألقى أبي علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أخي: ألهتك الحمام عن طلب العلم، فرغبت وانقطعت إلى ابن هرمز –وهو يروي عنه دائما بواسطة أبي الزّناد– سبعَ سنين، وفي رواية ثمان سنين، لم أخلطه بغيره ...

البيان: فمن أراد أن يتعلّم على قاعدة صحيحة وبأسلوب صحيح وجب عليه أن لا يخلط بين المشائخ، وهذا في العلم، فما بالك في الطريق وفي السلوك إلى الله تعالى، لأنّ الخلط بين المشائخ فيه مضرّة، وهذا ما فعله الإمام مالك ﷺ، فقد بقي سبع أو ثمان سنين مع نفس الشّيخ، لم يخلطه بغيره، وهذا في باب العلم، وليس في باب المعرفة بالله، وعند هؤلاء الرّجال، ليس هنالك ما هو أعظم من كلام رسول الله ﷺ، فكلّه معرفةٌ بالله بالنسبة لهم

السّارد: وكنت أجعل في كُمّي تمرا وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشّيخ فقولوا: مشغول، وكلام والد سيّدنا مالك هذا يشفّ عن حرص شديد على تعلّم أبنائه، وإذا كانت والدته على ما وَصَف ووالده على ما ذَكَر، فلا غرابة أن ينشأ ولدهما نشأته الّتي كانت من أعاجيب النشآت، وحمْله التّمر لصبيان أستاذه ليصرفوا عنه النّاس من أوضح الدلائل على حرصه على تفرّغ شيخه له،

وذلك من أكبر آيات الرّغبة في طلب العلم، وكان يقول ﷺ: إنْ كان الرّجل ليختلف للرّجل ثلاثين سنة يتعلّم منه، قال أصحابه: فكنّا نظنّ أنّه يريد نفسه مع ابن هرمز ...

البيان: وهذه إشارة منه، كأنّه يقول أنّ هنالك من النّاس من يتردّد على الشّيخ الواحد ثلاثين سنة ليتعلّم منه، والمراد منه: أنّ من أراد طلب العلم وجب عليه الصبر له، وليُكثِر من ملاقاة المشائخ حتّى يتعلّم منهم، حتّى يأخذ من علم أولئك السّادات ﷺ، لأنّ علمهم ظاهره علم الظاهر ولكن كذلك فيه علوم الباطن، لأنّ الفتوحات الربّانيّة والأنوار تفتح في كلّ مجلس وفي كلّ حين، فمجالستهم ومخالطتهم هي من أعظم أمور الفتح والثّبات في الدّين، قال ﷺ: "**جالسِ الكُبراءَ وسائلِ العلماءَ وخالطِ الحكماءَ**"[33]، فالصّحبة فيها الكثير من المداومة على الأخذ من هؤلاء السّادات، والصّحبة تكون دائما، وليس مرّة في الأمد الطويل من الزّمن، ولذا قال شيخنا ﷺ وأرضاه: عجبت للرّجل يكون شيخه في البلد ويبقى ثلاث أيّام لا يزوره، فلا يأتي لزيارته ولا يسلّم عليه ولا ينظر إليه ...

السّارد: وكان ابن هرمز استحلفه أن لا يذكر اسمه في حديث ...

البيان: قال له: أقرأُ عليك الأحاديث ولكن بشرط أن لا تَذكر اسمي في أيّ حديث منها، ولا تقل: قال ابن هرمز، فلا تروي عنّي مباشرة، والله أعلم بالسّبب، ربّما لأنّه يخاف الوقوف بين يديّ الله تعالى، فيا لهؤلاء الرّجال، يقول له: أعلّمك ما بلغني ولا تقل قال فلان، يخاف أن يُروى عنه حديث موضوع، فيُسأل عنه يوم القيامة، لا إله إلاّ الله، كيف حال هؤلاء الرّجال؟!، وهذا عكس ما هو موجود الآن، فالواحد منّا قد يتعلّم قليلا من العلم، أو تحصل له بعض المشاهدات، فلا يرى أحدا أفضل منه في الدّنيا بأسرها، وهذا هو الجنون بعينه، وبذلك يكون قد

[33] الراوي: وهب بن عبدالله السوائي أبو جحيفة المحدث: البيهقي - المصدر: المدخل إلى السنن الكبرى - الصفحة أو الرقم: 21/2

دخل عليه إبليس من الباب الواسع، فأصبح بذلك شيخه هو إبليس، بعكس من كان يقابل شيخه الحقيقي، لأنّه سيقول له: دع عنك هذا فإنّه غلط فادح، وخذ حذرك من المهالك الّتي أهلك بها إبليس الكثير من النّاس، وربّما حتّى العلماء منهم، فعليك بتقوى الله، وعليك بسنّة رسول الله ﷺ، وإلاّ أهلكك إبليس، فانظر إلى هؤلاء النّاس، هؤلاء السّادات، كابن هرمز ومالك، يستحلفه بالله أن يطلعه على كلّ العلم الّذي عنده بشرط أن لا يقول قال فلان، لأنّه يخاف الوقوف بين يديّ الله تعالى ...

السّارد: وكان ابن هرمز استحلفه أن لا يذكر اسمه في حديث ولعلّ هذا هو السّر في توسيط أبي الزّناد بينه وبينه، وقال رضي الله عنه: كنت آتي ابن هرمز بُكرة فما أخرج من بيته حتّى اللّيل ...

البيان: من الصّباح إلى المساء، لأنّه لابدّ للملاقاة أن تكون دائمة، والمراد منه أنّ نيّة التّعلّم ونيّة الاستمداد ونيّة التّبحّر، وكذلك نيّةُ أنّ ابن هرمز هو شيخه، كلّ هذه النّيات باقية فيه، فكان لا يفارقه، ولا يستغني عنه، إنّما دائما في مواجهة معه، ويطلب المزيد، ويطلب التّعلّم، ويطلب حلّ المشكلات، فيكون الازدياد دائما وأبدا، فإذا استقلّ بنفسه هلك ...

السّارد: ومن عكف على طلب العلم ثلاثين سنة في صفاء ذهن الإمام وحرصه المتقدّم يتلقّى عن مثل ابن هرمز، وهو هو، إمامةً وإحاطةً بأسرار الشريعة، غير غريب أن يصل إلى ما وصل إليه رضي الله عنه، وأمّا مبلغ قوّته الحافظة رضي الله عنه ...

البيان: كانت له حافظة قويّة رضي الله عنه، يحفظ آلافا بل عشرات الآلاف من الأحاديث، فإذا ما جلس في أحد مجالس العلم، فإنّه يحفظ كلّ الأحاديث الّتي تُروى في ذلك المجلس، على الرّغم من اختلاف الرّواة، وبالسّند الكامل، وبلفظها

كاملاً دون زيادة أو نقصان، حيث أنّه يستطيع أن يحفظ عشرة أحاديث عن كلّ راوٍ من عشرة رواة مختلفين، ويكون ذلك بالسند الصحيح وعلى عين المكان، وإذا ما طُلب إليه أن يعيد ما سمعه من تلك الأحاديث فإنّه يعيدها دون أخطاء، والعجيب أنّه لا يدوّن ولا يكتب شيئا، كلّ شيءٍ محفورٌ في ذاكرته، ولولا أن جعل الله لنا أمثال أولئك الرّجال، لضاع كلّ هذا العلم الّذي نتدارسه اليوم، فالحمد لله تعالى، وأمّا الآن فقد اختلفت الأمور كثيرا عمّا مضى، فقد أصبحت هنالك مطابع وآلات خاصة يُحفَظ بها العلم، لأنّ العقل البشري لم يعد يستطيع أن يحفظ العلم كما كان من قبل ...

فقير: سيدي، حدّثني بعضهم أنّ أحد العلماء التّونسيين كان يقرأ الجريدة بأكملها مرّة واحدة فيحفظها ...

البيان: هذا صحيح وموجود، وقد حدّثني سيدي محمّد القمار ﷺ عن شخص عرفه هنا في تونس، لا أعلم إن كان تونسيّا أو مغربيّا، وكانت له هذه الميزة، فكان يحفظ من قراءة واحدة، ولماذا؟ لأنّه ليس في قلبه إلاّ التقوى والصّفاء، وليس له بغض للمسلمين، ولا يرى لأحد تأثيرا إلاّ الله ﷻ، فلا عداوة بينه وبين أحد، عداوته الوحيدة مع الشّيطان ومع النّفس، فقط، فيقوّي نفسه يوما بعد يوم وهو متوجّه إلى طريق الحقّ، لا أكثر ولا أقلّ، وهذا من صفاء البصيرة، فقد قال سيدي الحاج الأحسن ﷺ أنّ انفتاح عين واحدة من عيون البصيرة يكون أقوى من ألف شمس، فتصوّر ألف شمس تسلّط ضوءها، بهذا يمكنه أن يحفظ كلّ شيء ...

السّارد: فقد قال الإمام ﷺ: حدّثني ابن شهاب أربعين حديثا ونيّفا، منها حديث السّقيفة، فحفظتها وقلت: أعدها عليّ فإنّي نسيت النيّف، فأبى، فقلت: أما كنت تحبّ أن يعاد عليك، قال: بلى، فأعاد فإذا هو كما حفظت ...

البيان: سمع أربعين حديثا لتوّه فحفظها، وإنّما هذا لكي نعرف من هو الإمام مالك، ومن هم أولئك الرّجال، فلا نستمع للمبغضين لهم، عسى الله أن يسامحنا ويسامحهم، فهذا هو الإمام مالك، إمام دار الهجرة، إمام المدينة وما أدراك ...

السّارد: وقال أيضا ﷺ: ساء حفظ النّاس، لقد كنت آتي سعيد بن المسيّب وعروة والقاسم وأبا أسامة وحُميدا وسالما وعدَّ جماعةً، فأدور عليهم أسمع من كلّ واحد، من الخمسين حديثا إلى المائة، ثمّ أنصرف وقد حفظته كلّه من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا ...

البيان: يسمع من كلّ واحد منهم خمسين حديثا فما فوق، فيحفظها كلّها ولا يخلط حديث هذا بحديث هذا، فهذا الرّجل إنّما هو آية من آيات الله، وبشارة من بشارات رسول الله ﷺ ...

السّارد: وعنه أيضا ﷺ: ما استودعت قلبي شيئا قطّ إلاّ حفظته ...

البيان: فكلّما استودع قلبه شيئا إلاّ وحفظه، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[34] ...

السّارد: وهذه غاية في الحفظ ليس بعدها مطمع لأحد، صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[35]، في ذلك العهد عهد الصّحابة والتّابعين ما كانت هناك مطابع ولا كانت الكتابة متوفّرةَ الأدوات، فلو لم يخلق الله تعالى لهذا الدّين في تلك العصور مثل هذه الأدمغة لنسي النّاس الدّين، ولضاع في زمن وجيز من نسيان النّاس له، ولما علم عزّ وجلّ أنّ الأذهان تضعف وأنّ القوى الحافظة لا تكاد تمسك شيئا في مثل هذه الأزمنة ...

[34] (9) سورة الحجر
[35] (9) سورة الحجر

البيان: هذا الإمام السيوطي يتحدّث عن زمانه ذاك، فماذا نقول عن زماننا هذا؟!، وبيننا وبينه قرابة أربع مائة عام ...

السّارد: ولما علم عزّ وجلّ أنّ الأذهان تضعف وأنّ القوى الحافظة لا تكاد تمسك شيئا في مثل هذه الأزمنة خلق لنا المطابع فحفظت بواسطتها الشريعة في بطون الأسفار، فسبحان الحكيم العليم ...

البيان: ولذا كان من أعظم الأمور أن جعل لنا ﷻ هذه الأدوات الخاصّة بالكتابة وبتسجيل العلم وخاصّة ما يحفظ العلم بصفة رقميّة، فهذه من أعظم المنن علينا، ولذا أقسم ﷻ فقال: ﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[36]، وهي من أعظم مزايا المولى ﷻ علينا، فبها حفظ الله ﷻ العلم من جيل إلى جيل، بالكتب والأسفار والكتابة على الجلد، ثمّ المطابع، ثمّ آلات النّسخ، ثمّ الأقراص المدمجة، ثمّ هذه الآلات المسجِّلة صغيرة الحجم والّتي بإمكانها أن تحفظ عشرات الكتب، والكتاب المقروء شأنه شأن الكتاب المسموع، فكلّها كتب تحفظ العلم ...

السّارد: ذِكْر شيء من شمائله ﷺ: كان أعظم النّاس مروءة وأكثرهم سمتا ...

البيان: كان أعظم النّاس مروءة، ومن جملة المروءة إتّباع الخاطر الأوّل، فإذا ما أتاني الفقير فلان وقال مثلا: ما أجمل هذه الكأس، وكان أوّلُ ما جاء في خاطري هو أن أهديها له، فعليّ أن أفعل ذلك، ولو كانت تلك الكأس ليس هنالك ما هو أعزّ منها على قلبي، ومهما كان الشيء الّذي أعجبه، كأسا أو غيرها، بل ولو كان الشّخص كافرا، بل وأفعل ذلك مع الفرح والسرور، وبقلب منشرح، فمن المروءة إتّباع الخاطر الأوّل في القلب، فلا يكون الإنسان شحيحا ولا

[36] (1) سورة القلم

بخيلا، ولكن ليجعل أمره قائما بالله، وليكن ربّانيّا، لشاهد قوله ﷻ: ﴿**كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ**﴾[37]، ولهذا كان الإمام مالك ذا مروءة، وكان ذا سمتٍ حسنٍ، وما معنى "السّمت الحسن"؟، السمت الحسن هو الصّفات الحسنة في المظهر وفي الخُلُق وفي القصد أيضا، أي أن يقصد الطريق المستقيم، فيكون الإنسان ذا سمت حسن في هيأته وفي خُلُقه وفي مظهره وفي وقفته وفي جلسته إلخ، وكذلك في قصده

فقير: سيدي، في ما يخصّ إتّباع الخاطر الأوّل، هذا الخاطر لا يطّلع عليه إلاّ صاحبه والمولى ﷻ، ومن هنا وجب على الإنسان أن يصدق مع نفسه في هذا الخاطر

البيان: إنّما وجب إتّباع ذلك الخاطر الأوّل لأنّه خاطر ربّاني، ومن لم يصدق مع نفسه في إتباع ذلك الخاطر، فلن تظهر عليه لوائح الصدق، وما الّذي يجعل الجميع في تعب مستمرّ؟، إنّما هو نَقْص الصّدق لا غير، وكلّما نقُص صدق الإنسان إلاّ ونقُص قُربه من الله ﷻ، وكلّما نقُص صدقه إلاّ ويزداد تعبه أكثر فأكثر، ولماذا يزداد تعبه؟، لأنّه يكون في تمزّق، فهو من ناحية أُولى موصولٌ، موصول بأشياخه، وموصول بسند عظيم، وموصول بإمداد لا يتخلّف عنه اليوم تلو اليوم وفي كلّ لحظة وحين، وموصول أيضا بكرامات يكرمه الله بها في كلّ وقت، فيُظهِر له الله ﷻ مرتبته، وأنّه محبوب وأنّه مقرّب، ويوفّقه بالتّوفيق الإلهي إلى أداء الصّلوات وإلى الجماعة وإلى ذكر الله، ثمّ يقوم هو بفعل ما يخالف كلّ هذا، فيكون التّعب، فأوّل ما يحصل له هو التّمزّق بين حبّ الاستقامة وبين عدم الاستقامة، ويكون هذا على حسب مرتبته، فيكون عدم الاستقامة متدرّجا من ارتكاب المعاصي إلى ارتكاب أمور –هي بسيطة في حقّ غيره– ولكنّها في حقّه تُعدّ من الكبائر، "**حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ**"[38]، وذلك على حسب مرتبته وعلى

[37] (79) سورة آل عمران

[38] قيل هو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وقيل إنما هو من كلام الزهري وقيل من كلام أبي سعيد الخراز

حسب قربه من الله ﷻ، فهذا الإنسان إن لم يكن صادقا فإنّ عيشته تصبح ضنكا وبالتّالي يتعب، ولو كان من المفتوح عليهم، ولو كان من المقرّبين ...

السّارد: كان أعظم النّاس مروءة، وأكثرهم سمتا، كثير الصمت ...

البيان: كثير الصّمت، وكلّ أهل الله كذلك، فكثرة صمته إنّما هي من تدبّره في نفسه، وكيف سيُنجي نفسه من هذه الدّنيا، بمصائبها وأهوالها وأخطارها، وكيف ينجو بنفسه يوم يقف بين يدي العزيز ﷻ، وماذا سيقول لله تعالى، لو قال له: يا عبد السوء، ولو قال له: ماذا عمِلت فيما علِمت؟، لأنّه لابدّ لكلّ رجل أن يختلي به الله ﷻ، ويقول له ما يقول، فبماذا سيجيب؟، فهؤلاء النّاس قد أصبحوا كلّهم في يقين الموت وفي يقين الآخرة، وكأنّهم في الآخرة، والإمام مالك منهم، فهو كثير الصمت، وذلك لشاهد قوله ﷺ: "**إذا رأيتُم الرَّجلَ قدْ أُعْطِيَ زُهْدًا في الدنيا، وقِلَّةَ مَنْطِقٍ، فاقتربُوا منه، فإنَّه يُلَقَّنُ الحكمَةَ**"[39]، ولماذا؟، لأنّه أمسك لسانه عن كثرة الكلام وأطلق فكره في التّمعّن في خلق الله، وفي حكمة الله، وفي آيات الله، وخاصّة منها ما كان في نفسه وفي الآفاق[40]، فهذا يلقَّن ويلقِّن الحكمة، وهي فهم الأشياء بما يُصلح حال الإنسان، وهي كذلك فهم الأشياء من أقصر الطرق، دون استطالة، وذلك لأنّ سمعه كان أكثر من كلامه، وأمّا إذا كان يديم الكلام، فإنّه لا ينصت إلى نواقيس قلبه، ولا إلى ضميره، ولا إلى ما –عسى الله ﷻ– أن يبثّه في روعه من الحقائق، ولا من الحوافز، فلا يهتمّ بها، لماذا؟، لأنّه شغل عن ذلك بالتّحدّث، أنا عندي كذا، وأنا فعلت كذا، وأنا قلت كذا، ومن هنا كان الإمام مالك طويل الصمت، أي كثير الفكرة، وكذلك قليل الكلام، فلا يستطيع أن يكون كثير الصمت وكثير الكلام في ذات الوقت، لأنّ هذا ما يسمى بضدّ الضدّ

[39] تخريج السيوطي ابن ماجه ولأبي نعيم في الحلية وللبيهقي في شعب الإيمان عن أبي خلاد ولأبي نعيم في الحلية وللبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة.

[40] **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** (53) سورة فصلت

السّارد: كثير الصمت، قليل الكلام، متحفّظا في قوله ...

البيان: متحفّظا في قوله، أي أنّه متنبّه ومتيقّظ لما يقول، فلا يتكلّم إلاّ برزانة، وبعد أن يزن كلامه جيّدا، ولذا كان هذا الرجل من ضمن الرّجال الّذين يَعُدُّون كلامهم من جملة أعمالهم، وإذا عدّ كلامه من جملة أعماله، فقد علم أنّه سيحاسب عليه، فلا ينطق الكلام جزافا، بل بعد أن يتروّى ويزِنَ ما سيتفوّه به ...

السّارد: من أشدّ النّاس مداراة للنّاس واستعمالا للإنصاف

البيان: معناه أنّه يداري عن النّاس ويغضّ الطّرف عنهم ويجبر خواطرهم، إلاّ في الحقّ، فإذا كان لابدّ له أن ينطق بالحقّ فإنّه ينطق لا محالة، وهكذا هو كبير القوم دائما، لابدّ له وأن يتحلّى بالمسامحة وغضّ الطرف والعفو، لأنّه إذا كشف له الله ﷻ عيوب خلقه، أو النّقص الحاصل عندهم، فلا يستطيع أن يحاسبهم على كلّ ذلك في كلّ وقت وحين، وإلاّ لما بقيت صحبةٌ ولا تعلّمٌ ولا علم، ولذا وجب عليه أن يسدل عليهم رداء عفوه وغضّ بصره وبصيرته، ويتعامل معهم بلطف ولين ورفق ومحبّة، وهي محبّة الصلاح والإصلاح لنفسه ولغيره، فيحصل على يديه النّفع والخير للمخلوقات، وأمّا إذا ما استنقصهم، بدون أن يشعر، فإنّه يرى لنفسه شفوفَ مرتبةٍ عليهم، فيخسر مباشرة، ولا يتأتّى منه ربح أبدا، ولا يعدّ من الرّجال جملة وتفصيلا، لأنّك لا تستطيع أن تعرف من هو أفضل منك، حاشى لله، فالإنسان العارف بربّه لا يستنقص أصحابه ولا يستنقص المسلمين أبدا، مهما فعلوا، وإن زنى وإن سرق، فلا يلتفت إلى ذلك، إنّما المقصود أن يوجّه له قلبه لله ﷻ، ويعينه على أن يتخطّى تلك العقبة الّتي أوقع نفسه فيها، ويعينه على أن يكون عبدا صالحا، لوجه الله فقط، وأمّا ما فعله، إن زنى أو سرق، فلينظر فيه أنّه مخلوق من مخلوقات الله ﷻ، وأنّ أفعاله ﷻ وتجلّياته إنّما هي دوائر تدور على من

يشاء ﷻ، وبالتّالي لا يرى نقصا في ذلك العبد أبدا، وإنّما يبغض فقط ما تبغضه الشّريعة لله، ويبقى ذلك الشّخص عزيزا عليه ...

السّارد: وكان إذا أصبح لبس ثيابه وتعمّم، ولا يراه أحد من أصدقائه أو أهله إلاّ كذلك

البيان: ولماذا يفعل هذا؟، فقط تعظيما للعلم، لأنّه من عند الله ﷻ ...

السّارد: وما أكل ولا شرب قطّ حيث يراه النّاس، ولا يضحك ولا يتكلّم في ما لا يعنيه، وكان من أحسن النّاس خُلُقا مع أهله وولده، ويقول: في ذلك مرضاة لربّك ومثراة في مالك ومنسأة في أجلك ...

البيان: كان من أحسن النّاس خُلُقا وخاصة مع أهله وولده، وهو ما لا نراه اليوم كثيرا، ولماذا؟ لأنّ في ذلك مرضاةً لربّك ومثراة في مالك ومنسأة في أجلك، وهو العيش الطيّب الحلال، وفعلا فهذا كلّه كلام ذوقيّ، فمن كان مفتوحا عليه في المعرفة بالله تعالى فإنّه يذوق حلاوة اللّين والرّفق مع أهله ومع ولده، فينصبغ ذلك – في وقته– نورا زائدا في قلبه يعينه على تحمّل صعاب الخلق، والعكس بالعكس، فإن كان في أهله –أي مع زوجته ومع أولاده– لطيفا رفيقا ليّنا هيّنا عذب الكلام، ولا يكون صيّاحًا ولا فحّاشًا، بل يكون ليّنا وهيّنا لوجه الله، فإنّه يفاض عليه من النّور ما يجعل قلبه أكثر قوّة لتحمّل هفوات وإعراض النّاس، والعكس بالعكس، فإذا لم يستطع ذلك مع أهله فلن يستطيعه مع غيرهم، فأوّل امتحان في الأخلاق يكون مع الأهل، هكذا جرت سنّة الله في خَلْقِه، من ليس له خُلُقٌ مع أهله وولده فلا خُلُقَ له مع سائر الخَلْق، ومن هنا كان جميع الأنبياء رعاة غنم، لكي يتعلّم من ذلك الرّعيِ الرّفقَ واللّينَ والصمت والتفكّر وضبط النّفس واللّسان، فمن كان عالما من العلماء فلابدّ وأن يكون له هذا الخُلُق، حتّى ينتفع النّاس بعلمه، وإن كان ذلك

العلم ليس علمه هو بل علم الله، وإنّما هو وعاء فقط، فلا يظنّ في نفسه أنّه على شيء، وإلاّ هلك وأُخرج من حضرة السّعادة وحضرة القرب، فإنّما هو وعاء لذلك العلم من الله ﷻ، فيبلّغه لمن اعترضه من الخَلق ولمن قدّر الله له أن يتلاقى معه، وهكذا تسير الأمور إلى قيام السّاعة، وأمّا هو في نفسه، فليأخذ حذره ولينجو برأسه، وفي ما غير ذلك فهو وعاء من جملة الأوعية ...

السّارد: وأمّا مبلغ تعظيمه لحديث الرّسول ﷺ، فقد قال مطرف: كان مالك إذا أتاه النّاس، خرجت إليهم الجارية فتقول لهم ...

البيان: تسألهم الجارية: هل أتيتم من أجل مسألة فقهيّة أو من أجل الحديث؟، فإذا جاؤوا من أجل مسألة فقهيّة، يخرج ويفتي لهم، وإذا جاؤوا لأجل الحديث، يدعهم ينتظرون، ثمّ يدخل فيغتسل ويتوضّأ ويجمّر ثيابه بالعود والبخور، ويكون قد لبس أفضل ما لديه من الثّياب، وقد كان رجلا ثريّا جدّا، وكان يؤتى له بالمال الكثير، فيفرّقه على أصحابِه وأصحابُه يفرّقونه على النّاس، وهكذا كلّما أعطَى إلاّ وزِيد له، وإن أمسك عن الإعْطاء يقف معه العَطاء، وكذلك الشّأن بالنّسبة للرّواي وللمكلّفين بها، يُعطِي فيُعطَى، فلا يحتفظْ بشيء عنده أبدا، يأكل ويُعطي، دائما وأبدا، فإن أمسك أو تراخى أو تثاقل في شيء، أو لم يستعمل المروءة وهي الخاطر الأوّل في القلب، نقُص له المدد، أو ربّما أُعطِي لغيره. وأمّا في ما يخصّ الإمام مالك، فقد كان يعظّم الحديث حتّى أنّه ينصب منصّة قبل التكلّم عن حديث رسول الله ﷺ ...

السّارد: كان مالك إذا أتاه النّاس، خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشّيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل خرج إليهم وأفتاهم، وإن قالوا الحديث، قال لهم: اجلسوا، ودخل مغتسله فاغتسل ...

البيان: اغتسل، والله أعلم، إمّا أن يكون على وضوء فيغسل يديه ويمضمض فمه إن كان به بقايا طعام، وإمّا أن لا يكون على طهر فيغتسل ويتوضّأ، والله أعلم، وقد يكون المراد منه هو غسل اليدين، والله أعلم، وبصفة عامّة أمثال أولئك الرّجال يكونون دائما على وضوء، لأنّه يكون حاملا لكلام رسول الله ﷺ، "**ما نمت ليلة إلاّ ورأيت رسول الله** ﷺ"، ولماذا؟ لأنّه صادق في حمل أمانة رسول الله ﷺ، اللّهمّ اجعلنا من الصّادقين، وهذا قد يتعبنا كثيرا، لأنّ زماننا غير زمانهم، ولكنّ الله حنّان منّان، نسأل الله أن يغفر لنا وأن يعيننا وأن يثبّتنا بجاه رسول الله ﷺ ...

السّارد: ودخل مغتسله فاغتسل وتطيّب ...

البيان: تطيّب أي أنّه مسّ أو جعل شيئا من طيبه ...

السّارد: ولبس ثيابا جددا وتعمّم ووضع على رأسه طويلة وتُلقى له المنصّة ...

البيان: الله أعلم ما هي الطويلة، ولكنّها –كالقلنسوّة– توضع على العمامة، وهي تزيد الوقار والهيبة في المجلس ...

السّارد: وتُلقى له المنصّة ويخرج إليهم وعليه خشوع ويوضع عود فلا يزال يتبخّر حتّى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ ...

البيان: فلا يزال يتبخّر حتّى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، فانظروا ماذا تفعلون في أورادكم وفي جوهرة الكمال أثناء ذكر الوظيفة، إذ لابدّ أن يكون المكان نقيّا طاهرا طيّبا، وأن تكون متحقّقا طهارة الثوب والمكان والبدن، وكذلك التطيّب والرائحة الطيّبة على قدر الاستطاعة، ولو استطعنا أن نفرش رداء أو إزارا أبيضا عند قراءة جوهرة الكمال لفعلنا، لكن اتّقاء للشبهات في الوقت الحاضر فإنّنا لا نفعل ذلك، وهو من زيادة الحرص في النّظافة ...

السّارد: وقال عبد الله ابن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدّثنا حديث رسول الله ﷺ، فلدغته عقرب ...

البيان: لدغته عقرب ستّ عشر لدغة فما رفع رجله، ووجهه يتلوّن، والسمّ يسري في جسده، ولم يتوقّف عن سرد كلام رسول الله ﷺ أدبا مع حضرة رسول الله ﷺ، فانظروا كيف هم أولئك النّاس ...

السّارد: فلدغته عقرب ستّ عشرة مرّة ومالك يتغيّر لونه ويصفرّ ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ ...

البيان: يصفرّ اصفرار الموت ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، ولماذا؟، لأنّه ربّما كان يرى رسول الله ﷺ يقظة، ويسمع الحديث من فيه ﷺ، والنّاس لا يتصوّرون أنّه يقابل حضرة المصطفى ﷺ، ويسمع من فيه، ويصلح له ﷺ إن أخطأ اللّفظ، لكنّه لم يقل هذا، ربّما أشار لذلك في بعض المواقف فقال: لو رأيتم ما أريت ما انتقدتموني، أو كما قال، وذلك عندما قيل له: إذا ذُكر رسول الله ﷺ يتبدّل لونك وتخشع وتطأطئ رأسك، فيصعب على أصحابه ذلك الحال الّذي هو فيه، وربّما بسبب أنّه يرى حضرة رسول الله ﷺ، ولذا وجب على الإنسان إذا ما قرأ كلام رسول الله ﷺ أن يستحضر أنّه يسمعه من فيه ﷺ، مباشرة، وكذلك الأمر مع كلام الشّيخ رضي الله عنه فلابدّ أن يستحضر أنّه يسمعه من فيه رضي الله عنه، وإن كنّا نرى بعض النّاس عشيّة الجمعة وبعد الهيللة، حينما نكون بصدد قراءة أحاديث رسول الله ﷺ، فهم يكونون ما بين خارج من الزّاوية وبين مستعدّ للخروج منها في نفس ذلك وقت، وقد يكون هنالك من يتحدّث ويضحك أيضا، وهذا سوء أدب عظيم، بل وفيهم من يظنّ أنّه يقاطع مجلس ذلك الرّجل الّذي افتتح الوظيفة، وهو إنّما يقاطع مجلس رسول الله ﷺ، وذلك من قوّة الجهل وقوّة النّفس عندهم، أعاذنا الله من ذلك، ومن كانت هذه نيّته فلا يربح أبدا ...

السّارد: فلمّا فرغ من المجلس وتفرّق النّاس قلت: يا أبا عبد الله لقد رأيتُ اليوم منك عجبا

البيان: أمر عجب، وهو الشّيء غير العاديّ الّذي يُتعجّب منه، والّذي يبقى العقل يَتعجّب فيه ويتساءل عنه، ولا يجد له جوابا، وله الحقّ في ذلك، فهذا رجل تلدغه عقرب، وهو يعلم أنّ الله ﷻ قال: ﴿**وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[41]، فكيف لا يتحرّك ...

السّارد: فقال: نعم، إنّما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ...

البيان: وهذا ما كان من سيّدنا أبي بكر الصدّيق لما لدغته العقرب في الغار، فلم يتحرّك حتّى سقطت قطرة دمع حارّة من عينه على خدّ رسول الله ﷺ، فأفاق ﷺ، ولولا ذلك لما انتبه ﷺ بما يحدث، لأنّ الصّدّيق لم يتحرّك حين لدغته تلك العقرب أو الحيّة السامّة ...

السّارد: وليس بعد هذا أدب يُنتظر أن يَتأدّب به أحد مع حديث رسول الله ﷺ، وأمّا تحرّيه في الفتيا خوفا من الله تعالى، فقد قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إنّي أفكّر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ...

البيان: أكثر من عشر سنوات وهو يفكّر في مسألة ولم يستقرّ رأيه فيها بعد، كما أنّه لم يُؤذن في الباطن بأن يجيب عنها، فتراه يتحرّى في الإجابة، ويظلّ يبحث عن اللّفظ الصّواب للحسم فيها، فإن لم يجد بما يجيب تركها، لأنّه يخاف من الإفتاء، بل ويعلّم أصحابه فيقول: لابدّ في كلّ مجلس علم وكلّ مجلس فتيا أن تكون هنالك كلمة عظيمة القدر والمقدار اسمها "لا أعلم"، ولكنّ النّاس –خاصّة بعض العلماء– قد يخجل من قول "لا أعلم" أو "لا أدري"، سبحان الله، "لا أعلم" هي

[41] (195) سورة البقرة

أقرب كلمة إلى العلم وإلى الثّقة وإلى الورع وإلى الكمال وإلى حسن الآداب، "لا أعلم"، وقد حدّثنا الشّيخ سيدي محمّد القماري ﷺ عن بعض أقاربه، من العائلة الموسّعة، كان فقيها قاضيا عالما علاّمة، بحر من العلم، وكان إذا سُئل عن المسألة، يقول: "اذهب الآن وعُد غدا، أجيبك عنها بإذن الله"، وهو يعرف المسألة والإجابة عنها وبإتقان كامل، ولكنّه يتريّث حتّى يتثبّت منها، فانظروا إلى هؤلاء الرّجال وإلى ورعهم، وأمّا نحن اليوم ودون أن يكون لنا أيّ علم، ولم نبلغ مقام الاجتهاد، وإنّما نحاول أن نكون مقتدين بأحسن الاقتداء والإتّباع، فإذا ما سُئلنا عن مسألة ما، نجيب دون تردّد، هذا حلال وهذا حرام وهذا مكروه، ونصبح كلّنا وكأنّنا علماء لنا دراية تامّة بكلّ الأمور، وهذه في الحقيقة ليست من شيم العالِم، فالعالم يتحرّى ويقول "لا أدري"، ومن جاء يبحث عن جواب لمسألة وكانت له نيّة صالحة في كلمة "لا أدري"، فأهلا به ومرحبا، ومن نقصت نيّته في كلمة "لا أدري"، فذلك شأنه، فنقصان نيّة السّائل أفضل من تورّط المسؤول إذا ما أخطأ الجواب ...

السّارد: إنّي أفكّر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتّفق لي رأي فيها إلى الآن، وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل، قال للسائل: انصرف حتّى أنظر، فينصرف، ويتردّد فيها، وقلنا له في ذلك ...

البيان: وقلنا له في ذلك، أي سألناه، لماذا تتصرّف هكذا؟ فأنت تعلم، وأنت عالم العلماء، وأنت من أنت!، وإذا سألك أحدهم تقول له: انصرف حتّى أرى فيها رأيي، فلماذا تفعل هذا؟ ...

السّارد: فبكى ...

البيان: بكى، لأنّ الرّجل مع الله، وهؤلاء الرّجال خائفون من الله ﷻ ...

السّارد: وقال: إنّي أخاف أن يكون لي من المسائل يومٌ وأيّ يوم ...

البيان: فالرّجل خائف من الله، لأنّه يوم القيامة سيسأل عن كلّ تلك المسائل الّتي أجاب عنها، وكلّما أخطأ في مسألة، وتكاثر عدد تلك المسائل، إلاّ وارتفع مقدار "الأنا" عنده، قليلا فقليلا إلى أن ينسى النَّفَس الّذي كان فيه، وهو الذّي به تحصل الفائدة، فإذا ما وقع ذلك، طغى عليه "الأنا"، وسُلب الورع والتّقوى وخاصّة أنفاس الأوّلين ﷺ وأرضاهم، ويوم القيامة يجد نفسه مع الله ﷻ، فيقول له: سُئِلت عن كذا وكذا، وأجبت بكذا وكذا، وأيّ يوم ذلك اليوم، لذلك بكى، لأنّه رجل في مقام اليقين

السّارد: وكان ﷺ يقول: من أحبّ أن يجيب عن مسألة، فليعرض نفسه على الجنّة والنّار ...

البيان: من كان من العلماء وأرد أن يجيب عن مسألة، فليعرض نفسه على الجنّة على يمينه وعلى النّار على شماله، ثمّ إذا لم يخَف النّار ولم يخَف زوال الجنّة فليتكلّم، فإن كان ممّن يتجاسرون على الجنّة والنّار فليتكلّم، وإن كان فيه تقوى فإنّه لابدّ أن يراجع نفسه قبل أن يتكلّم، بل ويذهب ليزيد في التّعلّم أكثر وأكثر، فتراه يكتب المسألة ويشرحها ويدقّقها ويوضّحها ويناقشها مع أهل العلم، ثمّ يقول: سألتني في الشّهر الماضي، أو في العام الماضي، عن مسألة كذا، فإنّي أجيبك، والله هو الموفِّق"، فهذا هو العالم، ولو أجاب في دهره عن مسألة واحدة، يكفيه علما وفخرا وشرفا أنّه كان على خطوات الأوائل أشياخنا ﷺ وأرضاهم ونفعنا بهم آمين

السّارد: من أحبّ أن يجيب عن مسألة، فليعرض نفسه على الجنّة والنّار وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثمّ يجيب، وقال: ما من شيء أشدّ عليّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، لأنّ هذا هو القطع في حكم الله، ولقد أدركت أهل العلم ببلدنا، وإنّ أحدهم إذا سُئل عن المسألة، كأنّما الموت أشرف عليه، وقال

الهيثم ابن جميل: شهدت مالكا سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري ..

البيان: من ثمان وأربعين مسألة، أجاب عن ستّ عشرة مسألة، وفي اثنين وثلاثين منها قال: لا أدري، وهو عالم المدينة الّذي بشّر به ﷺ، وهو عالم العلماء، وإمام المسلمين في زمنه وفي كلّ الأزمان، قال: لا أدري، في اثنين وثلاثين مسألة، فرضي الله عنه وعن شيخه سيّدنا ومولانا أحمد التّجاني رضي الله عنه ...

السّارد: ومن أجل هذا قال موسى ابن داوود: ما رأيت أحدا من العلماء أكثر أن يقول لا أدري أحسن من مالك ...

البيان: مع أنّه ليس هنالك أعلى من الإمام مالك، ومع ذلك فإنّه يقول: لا أدري ...

السّارد: وكان رضي الله عنه يقول: ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول "لا أدري" ...

البيان: نعم، ينبغي للعالم أن يورّث جلساءه ومن تعلّم وسمع منه العلم كلمةَ "لا أدري"، وهي علمٌ عظيم، من قال لا أدري علّمه الله ما لا يدري، ومن قال لا أعلم علّمه الله ما لم يعلم.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

## ﴿ بَابُ هَذِهِ الأَبْيَاتِ هُوَ أَعْظَمُ البَيَانِ ﴾

درس من كتاب "جواهر المعاني:

البيان: من الجيّد أن يكون هنالك اختلاط بينكم وبين العامّة، لكي لا تظلّوا في نفس الأجواء دائما، إذ لابدّ من التّغيير أحيانا فعقولكم أوسع من عقولهم، وهذا لا يعني أنّهم أناس غير جيّدين، وإنّما كلٌّ بحسب بيئته، ولكن فقط لكي تدركوا أين أنتم من أولئك النّاس وأين أولئك النّاس منكم، من دون أن يكون هنالك احتقار منكم لهم، حاشى لله، وعسى الله ﷻ أن يحفظهم وأن يزيدهم من خيره، ولكن فقط لكي تدرك أين وضعك ربّك، ومع من وضعك، وما قدرك وما مقدارك عنده ﷻ ...

السّارد: بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما، قال شيخنا ﷺ وأرضاه ونفعنا به آمين.

وهذه الأبيات الّتي نذكرها بعد، علّمها سيّد الوجود ﷺ في المنام للوليّ الصّالح، والسّعيّ الرابح ...

البيان: السّعيّ الرابح، أي أنّه سعى فربح، وإذا لم يسع لم يربح، فهذه إحدى قواعد الحقّ ﷻ، من أراد شيئا فليسع له، سواء كان علما أو عملا أو

زواجا إلخ، إذ لابدّ من السّعي، لشاهد قوله ﷻ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ**﴾[42]، فإذا لم تعمل فقد أخلَّيْتَ بالنّظام الّذي يريده المولى ﷻ في كونه، وهو أن تعمل فتَجِد، وذلك بأن تتوكّل على ربّك في الأمر كلّه وتتقن الأسباب وبإذن الله تجد نتيجةً لذلك العمل ...

السّارد: صاحب المشهد الكريم الواضح ...

البيان: صاحب المشهد الكريم الواضح، إذ أن هناك مشهدا واضحا ومشهدا غير واضحٍ، وكما توجد مشاهد واضحة توجد أيضا مشاهد قد يختلط فيها على الإنسان ما هو ربّاني بما هو شيطاني، إلاّ لمن صفى له المشرب وكانت مرآته صافية، بحيث يتحقّق المشهد كما رآه، ولذا على الإنسان أن يتورّع، ويبقَى إتقانُ الشريعة أعلى من كلّ شيء، إلاّ لمن صفى له المشرب حقيقةً، ويكون متحقّقا من ذلك، عندئذ يكون مشهده كريما جليّا واضحا، وأمّا مَن دونه فيحتاج إلى من يعينه على فهمه ...

السّارد: أبي عبد الله سيدي محمّد بن العربي التازي دارًا الدمراوي أصلاً ...

البيان: هو من أكابر العارفين بالله تعالى، ومن أكابر أصحاب سيدي أحمد التّجاني ﵁، وكان صغير السنّ كما وكان غاية في الجمال، وكانت له مشاهد عجيبة، وكان يتقابل مع رسول الله ﷺ يقظة وبكثرة، وكان سيّدنا رسول الله ﷺ يقول له: قل لأحمد كذا وكذا، وبالرّغم من أنّه تلميذ سيدي أحمد التّجاني ﵁، فقد أراد الله ﷻ أن يجعله واسطة بينه وبين سيّد الوجود ﷺ ...

السّارد: المتوفّي بعين ماضي سنة 1214هـ ...

البيان: وقد زرته في إحدى المرّات في عين ماضي ...

[42] (105) سورة التوبة

السّارد: فلمّا استيقظ وجدها في فيه يذكرها ...

البيان: في فيه، أي في فمه، وهذه الأبيات قد علّمها له رسول الله ﷺ في المنام، فلمّا أفاق من نومه وجد نفسه يحفظها فدوّنها ...

السّارد: فحفظها، فبعد ذلك لقي مولانا رسول الله ﷺ يقظة ...

البيان: جاءه ﷺ في المنام فعلّمه أبياتا، وعندما أفاق من نومه وجد نفسه يعرفها ويحفظها، وهذا لكي تعلموا أنّ كثيرا من الشعراء المادحين إذا ما أفاق من النّوم يجد على لسانه مدائح، وذلك في الحقيقة ليس من عنديّة نفسه، وإنّما ذلك بإلهام من الله ﷻ، فالله هو الّذي يرسّخها له في قلبه، وخاصّة ما كان منها في مدح الشّيخ رضي الله عنه، وسيدي العربي التّازي الدمراوي رضي الله عنه قد علّمه رسول الله ﷺ هذه الأبيات الأربعة في المنام، فحفظها، وحين لاقاه في اليقظة، طلب منه تفسيرها، فأجابه إلى طلبه، وأمّا قوله "لقي مولانا رسول الله ﷺ يقظة"، فالمراد منه أنّه يمكن أن يجده في أيّ مكان، في السّوق أو في الطّريق العام، وكما كان يحدّثنا سيدي الحاج القمار رضي الله عنه عن ذلك، إذ يقول: "كثيرا ما كنت أراه ﷺ في القطار السّريع، هنا في تونس العاصمة، وبصفة عامّة لا يكلّمني ولا يحدّثني، إلاّ في بعض الأحيان، أراه فأعرفه ويعرفني، فإذا ما كلّمته يكلّمني" ا.هـ وهذا الأمر موجود إلى يومنا هذا وإلى قيام السّاعة، وذلك عند أناس مخصوصين، يَمُنّ الله ﷻ عليهم بملاقاة سيّدنا رسول الله ﷺ يقظة ومناما، فيسألونه عمّا أُشكل عليهم، فيعلّمهم ﷺ الحديث وتفسير القرآن، وتصير عندهم علوم جديدة، سواء قالها لهم مباشرة أو يحسّونها حين تصلهم بمدده ﷺ عن طريق الوسائط، فيتكلّمون على لسانه، نسأل الله أن يجعلنا منهم، بجاهه ﷺ، بمنّه وفضله، ﷻ ...

السّارد: وكان يلاقيه في اليقظة كثيرا، فسأله عن معنى الأبيات، وطلب منه شرح الأبيات، فأجابه لذلك مولانا رسول الله ﷺ ...

البيان: يمكن أن يجيبه ويمكن أن لا يجيبه لطلبه، كما يشاء هو ﷺ ...

السّارد: فأجابه لذلك مولانا رسول الله ﷺ لمحبّته في شيخنا، وأستاذنا مولانا أحمد بن محمّد التّجاني رضي الله عنه، وهو تلميذ له، وصرّح له سيّد الوجود ﷺ بأن قال له: (لولا محبّتك في التّجاني ما رأيتني قطّ) ا.هـ ...

البيان: "لولا محبّتك في التّجاني ما رأيتني قطّ"، و"قطّ" هذه فيها نوع من التّهديد، حاشاه ﷺ، هو لم يهدّده، لكن في مقامه ﷺ وفي مقام سيدي العربي الدمراوي رضي الله عنه كلمة "قطّ" تصبح صعبة ومخيفة جدّا، "لولا محبّتك في التّجاني ما رأيتني قطّ"، والمراد منها: أنّك لا تراني أبدا، ولذلك فكلّ شيء يحصل معنا إنّما هو ببركة سيّدنا ومولانا أحمد التّجاني رضي الله عنه ولأجله، وكما قال رضي الله عنه: "لأجلنا ولله الحمد"، فلولاه لما كنّا نستطيع أن نجتمع لا على الصلوات الخمس ولا على تدارس العلم ولا تكون لنا زاوية أصلا، وإنّما ذلك بفضل الله سبحانه وتعالى، وبهممه العالية رضي الله عنه، وببركاته، وبركات أصحابه الّتي سرت فينا، والّتي -إن سرت في الخشب- حوّلته ذهبا بإذن الله تعالى، وكلّنا نعرف أنفسنا جيّدا، لا صلة لنا بهذه العلوم، ولا ندري شيئا عن هذا الدّين، ثمّ به رضي الله عنه صارت النّاس تصلّي، وهو ما يسمّى بإحياء الدّين، "لولا محبّتك في التّجاني ما رأيتني قطّ"، وكذلك كلّ من فُتح عليه إنّما فُتح عليه ببركة شيخه، وببركة محبّته في شيخه وفي واسطته، فإن لم يكن هنالك محبّة وتعظيم وإجلال، فلا يكون شيء من هذا، وهي الوسائط ...

السّارد: أو كما قال له ممّا هذا معناه، وقال له: أعط شرح هذه الأبيات للتّجاني، وهذا نصّ الأبيات ...

البيان: استمعوا جيّدا لهذه الأبيات الّتي قالها رسول الله ﷺ لسيدي العربي الدّمراوي رضي الله عنه لينقلها إلى سيدي أحمد التّجاني رضي الله عنه، لكي تعرفوا علوم وأسرار سيدي أحمد التّجاني رضي الله عنه

السّارد:

**فَبِالمَجْـــــدِ وَالتَّحْمِيـــــدِ بِـــــهِ تَتَجَلَّـــــى ذَاتُـــــهُ**

**وَبِالقَصْـــــدِ كَـــــانَ المَنْـــــعُ لِـــــي وَحْـــــدِي**

**وَبِحَـــــقِّ الحَـــــقِّ بِـــــالحَقِّ تَـــــرَى حَقِيقَتَـــــهُ**

**وَبِـــــالحَقِّ لاَ بِـــــالحَقِّ احْتَجَـــــبَ عَنِّـــــي زِنْـــــدِي**

**وَفِـــــي تَـــــدْبِيرِ أَمْـــــرِهِ أَحَاطَـــــتْ قُدْرَتُـــــهُ**

**وَبِالقَصْـــــدِ لاَ بِالقَصْـــــدِ احْتَجَـــــبَ عَـــــنْهُمْ أَخْـــــذِي**

**فَـــــاغْرَقْ فِـــــي بَحْـــــرِ الوِحْـــــدَةِ تَـــــرَى وِحْدَتَـــــهُ**

**تَرْتَفِـــــعْ عَنْـــــكَ الحُجْـــــبُ حَتَّـــــى تَـــــرَى الأَسْـــــوَدَ بِالضِّـــــدِّ**

انتهت الأبيات ...

البيان: كلام صعب جدّا، ولا تُشمّ له رائحة، حتى ولو كنت مفتوحا عليك، فإذا ما اشتممت فيه رائحة فكرة أو اثنتين فعُدَّ هذا أمرا عظيما، لكي تعرف مبلغ قوّة علم سيّدنا أحمد التّجاني رضي الله عنه، ولكي تعرف أنّ رسول الله ﷺ، إذا ما صعد بك إلى علوم فوق علوم فوق علوم، فإنّك لن تفهم ولو حبّة منه، فبالرّغم من أنّ الكلام مكتوب باللّغة العربيّة، فإنّ ما فيه من المعاني ما لا يتأتّى لك منها

أيّ معنى، إلاّ لمن كان مفتوحا عليه فتحا كبيرا، فيمكنه أن يشتمّ رائحة ضئيلة من بعض المعنى المراد من هذا، لأنّ النّور بعيد جدّا، وحتّى مع التّفسير فإنّه يصعب عليك الفهم، ولولا شيخنا ﵁ الّذي صبّ فينا المعنى الأصليّ للقضيّة ككلّ، لما شممنا له رائحة، وأعرف أنّه صعب ولكنّنا نقرأه تبرّكا به ﵁، ولكي نرى بعض هذه العلوم الّتي عند خلفاء الطريقة التّجانيّة ...

السّارد: ونصّ شرح سيّد الوجود ولفظه ﷺ: اسمع ما أقول لك واحتفظ على كلّ ما تسمعه منّي في هذه الأبيات الّتي أمرتك بحفظها في المنام فاكتب معناها بالتّحقيق

البيان: انظروا إلى رسول الله ﷺ، وإلى تجلّيه في المنام، ثمّ إلى تجلّيه في اليقظة، وكيف يمدّ الأكوان، وهو مدرك لما يفعله، فإذا ما زارك في المنام فقد زارك فعلا، وقد يأتيك في اليقظة كذلك، وهو نفس شأن القطب الوارث المحمّدي الّذي يرث المقام المحمّدي، فهو يتصرّف بذاته، وهذا التّصريف ليس كتصريفات باقي الأولياء، وكلّما جاء أيّ مدد من جميع الإمدادات الحسّيّة والمعنويّة فلابدّ وأن يكون فيها واسطة، وهو يدرك جيّدا كيف أنّه واسطة، ولذا يقول الشّيخ سيدي الحاج الأحسن ﵁ وأرضاه: "لا يتنفّس أحد في الأرض ولا في السّماء إلاّ بإذني، ولا يأكل أحد ولا يشرب في الأرض ولا في السّماء ولا في البحار، إلاّ إذا أعطيته له بيدي"، فهو إنّما يتصرّف بذاته هو، وهو يعلم ذلك جيّدا ويدركه حقّ الإدراك، وأمّا مَن دونه فلهم التّصريف والتّجلّيات عن طريق القطب الأعظم الأكبر، ويحسّون ذلك ويعلمونه كلّ على قدر طاقته، لكنّ التّصريف عندهم لا يكون بذواتهم بل بذات القطب الأكبر، وهذا لكي تعلم أنّ مراتبه شيء لا يصدّق ولا يدرك بعقل، ككلام سيدي الحاج الأحسن ﵁ الّذي فيه تحدّي، بقوله: "إلاّ إذا أعطيته له بيدي"، ومن التّحدّي أيضا ما صار مع بعض القسّيسين في أمريكا حينما أرادوا أن يقرؤوا القرآن ليحلّلوه

ويناقشوه، وكانت البداية مع ﴿**الٓمٓ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[43]، فوقف أحدهم ولم يواصل القراءة، وقال: "من يستطيع أن يقول: ذلك الكتاب لا ريب فيه؟"، فتفكّر فيها مليّا وأنار الله له قلبه، فقال: "هذه لا يقولها إلاّ الله ﷻ، لأنّه يعلم يقينا أنّه صحيح مائة في المائة في قوله هذا"، وعندما حاول أن يناقش القسّيسين في تلك النقطة علم أنّهم لن يقتنعوا، فتركهم وحمل معه تقريبا سبعة عشر ألف مسلم أمريكي، وسافر معهم ليحجّوا هذا العام إلى البيت الحرام، وإنّما لم يصل إلى ما وصل إليه إلاّ بتمعّنه في تحدّي المولى ﷻ لخلقه حين قال: ﴿**لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾، فلا يستطيع أن يقول ذلك من كان في شكّ من أمره، بل يقوله فقط من كان متأكّدا من صحّة كلامه، وهذا ما نقيس عليه قوله ﷺ: "اسمع منّي"، ففيه تحدٍّ ...

السّارد: فاكتب معناها بالتّحقيق وأعطه للتّجاني ...

البيان: أكتب معناها بالتّحقيق، أي أنّه ﷺ بصدد إخراج حقائق الحقائق ...

السّارد: وقل له: باب هذه الأبيات هو أعظم البيان ...

البيان: باب هذه الأبيات هو أعظم البيان، وما يفهمه سيّدنا ومولانا أحمد التّجاني رضي الله عنه ليس كما يفهمه سيدي العربي الدمراوي رضي الله عنه الّذي هو من أكابر أهل هذه الطّريقة، لكنّ الإشارات النبويّة تبقى أمرا مختلفا في هذا الّذي لا نستطيع نحن فهمه، إلاّ ما كتب الله لنا أن نفهم، "باب هذه الأبيات هو أعظم البيان"، ولم يقل: "هو أعظم الأبيات"، بل قال: "هو أعظم البيان"، أستغفر الله، لا يُفَسَّر، ولكن نحاول أن نفهمه، فالمراد منه "أنا الآن أبيّن لك ما هو مقامك"، فتقريبا هذا

[43] (2،1) سورة البقرة

هو المراد منه، والله أعلم، وهو أعظم البيان، أي أنّه ليس هناك بيان أعظم من هذا، وما يجب أن يقال فها قد قلناه، والله أعلم ...

السّارد: وقل له: لا يدخل على هذا الباب إلاّ أهل التّوحيد المحقّقين ...

البيان: الّذين تحقّقوا بأسماء الله، ثمّ بصفاته ﷻ، ثمّ تركوا تجلّيات الأسماء والصّفات ودخلوا في تجلّيات الذّات، وهم أهل التّحقيق الموحّدين من هذه الأمّة ...

السّارد: وأهل التّجريد الصّابرين ...

البيان: لأنّه إذا تجرّد العبد ممّا سوى الله ﷻ فلابدّ له أن يصبر لهذا المقام، فإذا ما أراد الرئاسة، يقال له: لا، وإذا ما أراد كثرة طعام، يقال له: لا، وإذا ما أراد أي شيء، يقال له: لا، فيقول: ماذا أفعل؟، يقال له: اصبر مجرّدا من كلّ ما سوى الله، واصبر لله، فأنت عبد ذليل إلى ربّك، فقط لا غير ...

السّارد: وأهل الوفاء المخلصين، وأهل التّحقيق الموقنين ...

البيان: الموقنين بتحقيقهم، فلا شكّ لهم ولا ريب في ذلك، فإنّما هم أهل تحقيق، وفي تحقيقهم يقين، أي ثبات ووعي بما هم متحقّقون فيه، وليس تحقيقا فيه شكّ، بل هو تحقيق معه يقين ...

السّارد: وأهل الصّبر الكاتمين ...

البيان: لأنّهم أهل الصبر على تجليّات الذّات وتجلّيات الصّفات، فإذا ما دخل الإنسان في المحبّة الكبرى مع ربّ العزّة ﷻ، وبالتّالي أصبح أهلا للتّجلّيات الكبرى، فلابدّ له من صبر عظيم، ويكون هذا الصّبر مع الكتم، فيصبح في مقام صعب للغاية، ولكنّ الله ﷻ يُقدِره عليه بحمله من جلال إلى جمال إلى جلال،

وهكذا، ومن كان من أهل الصّبر الكاتمين، فإنّه يتجلّى عليه المولى ﷻ، ثمّ يقول له: أكتم ولا تُظهر شيئا للخلق، وهو يكون في نهاية تجلّي الذّات، وفي نهاية المعرفة بالله تعالى، وفي نهاية التّصريفات الإلهيّة، ومع ذلك لا يستطيع أن يُخرِج أيّ شيء ممّا عنده، إلاّ بالإذن، فيكون متكتّما على ما هو عليه، مع الصّبر ...

السّارد: وأهل التّخليص هم أهل التّجلّي، وأهل التّجلّي هم الّذين يرثون مقامي

البيان: وأهل التّخليص هم أهل التّجلّي، أي الّذين خرجوا من تجلّيات الصّفات إلى تجلّيات الذّات، وأهل التّجلّي هم الّذين يرثون مقامي، وهو المقام المحمّديّ، وهو الخلافة العامّة عن الله تعالى أينما كان الله إلها ﷻ ...

السّارد: قل لأحمد التّجاني: معنى هذه الأبيات هو الباب الّذي يوصل إلى المعرفة

البيان: هنا يظهر الفرق بين طريقة أعلى علّيين وبين طريقة المعرفة بالله تعالى، فطريقة أعلى علّيين جيّدة وممتازة للغاية، ولكنّ طريقة المعرفة بالله تعالى تكون دائما إلى أعلى، وهذه هي مدرسة التّجريد التّام للشّيخ البعقيلي ﷺ، وهي مدرسة المعرفة بالله تعالى، وهي مدرسة شيخنا سيدي الحاج القمار ﷺ، فهو لا يدرِّس ولا يصبّ في تلاميذه إلاّ المعرفة بالله تعالى، وإذا ما خرجت به عن المعرفة بالله تعالى، فإنّه يقول لك: "ابحث عن غيري"، وكلّ واحد يختار ما يناسبه من الطريقتين، فهذا سيدي الحاج الأحسن ﷺ، وهذا مشرب المعرفة التّامة بالله تعالى، "**لا أدلّك إلاّ على ربّك**"، فإذا أردت أشياء أخرى فيقول لك: "أنا أنهاك عن ذلك"، فإن اتّبعته ربحت، وإن لم ترد الإتّباع، فأنت حرّ في ما تفعل، بل وأكثر من ذلك يحبّك ويربحك ويدعو لك بالخير، ولأنّك لا تحبّ المعرفة بالله فإنّه لا يستطيع أن يفرض

عليك شيئا، وإنّما يربحك على قدر نيّتك فيه، وعلى قدر ما تعلو فإنّه يعلو معك، فهذا باب المعرفة بالله ...

السّارد: وقل له: كلّ باب فيه بابان أحدهما مفتوح، والآخر مسدود وقل له: لهذين البابين طريقان، وكلّ طريق توصل إلى بابها، فمن أخذ طريق الباب المفتوح وصل ودخل وتجلّى ...

البيان: من أخذ طريق الباب المفتوح وصل ودخل وتجلّى، وهو طريق صلاة الفاتح لما أغلق مع التّجريد، وهذه ما سمّاها الشّيخ القمار ﷺ: **"بلاشْ باشْ"** أي **"دونَ غرضٍ"**، كلمة مشهورة وسهلة، تجعلها في جميع تحرّكاتك -إن كنت قد فهمتها- فتكون عبدا لله تعالى، لأنّهم ﷺ يُعطَون جوامع الكلم وراثةً نبويّةً، فكلّما عبدتَ ربّك وتحرّكتَ وسكنتَ، فاجعل ذلك لله تعالى، ولا تجعله لغرض ما، فتصبح بذلك من أهل التّجريد الواصلين، وتصبح بالتّالي من أهل المعرفة بالله تعالى، فأنت عارف بالله تعالى، وإذا ما سارت عبادتك في الباب المفتوح، فإنّها تُقبل، وإذا ما قُبلت، فإنها ترجع عليك بأنوارٍ من الحضرة الإلهيّة فتُنوّر قلبك وذاتك، فتترقّى وتزيد ترقّيا وتوسّعا، وأمّا إذا عملت ما عملته بغرض كذا أو كذا، فستسير أعمالك في اتّجاه الباب المسدود، فتقف وتظلّ معلّقة، وتنتظرك إلى أن تتوب وتتجرّد من الأغراض، وتقول: "يا ربّ، لقد عملت ذلك لله"، عندئذ يمكن لأعمالك أن تدخل، ولذا كلّ من أصبح له غرض ما، إلاّ وتذبذب، ولو كان عالي المقام، فإنّه يتذبذب، ويدرك ذلك، وإذا ما رجع إلى الله تعالى، وترك جميع الأغراض، فإنّ جميع تلك الأعمال تدخل وبسرعة، وتأتيه أنوارها، وهكذا يواصل مسيرته إلى الله تعالى، والسّير إنّما هو إلى الله تعالى لا إلى غيره ...

السّارد: وصل ودخل وتجلّى، وصل أي أعماله وردت على ربّه من غير معارض يعارضها، فإذا أبعدتها المعارضات ارتفعت لها الحجب ودخلت ...

البيان: من هنا نفهم أنّه ليس الإنسان هو الّذي ترتفع عنه الحجب، إنّما أعماله –إن كانت خالصة لله تعالى وبدون غرض- هي الّتي تدخل، فترفع عنها الحجب، فيرجع عليه ذلك بالأنوار، ولذا قال سيدي الحاج الأحسن ﵁ عن جميع كتبه: "جعلته كالاسم الأعظم الظّاهر في جميع كتبي"، وهو هذا، وهو التّجريد ممّا سوى الله، أي التّجريد من الغير والغيريّة، فلا تلتفت لأيّ شيء غير الله، كأن تأتي بمعصية، فاستغفر ربّك منها ولا تظلّ مهتمّا بها، أو أن تأتي بحسنة فاحمد ربّك عليها ولا تظلّ تراها طول الوقت، فلا تنظر لا من هنا ولا من هناك، بل توجّه إلى الله، وانشغل فقط بالله تعالى، فهذا هو لبّ القضيّة الّتي جاء بها النّبيّ ﷺ ...

السّارد: فإذا دخلت أنزلت الملائكة إلى صاحبها وأحبّته وكانت حياتها له دفع المعارضة عنه

البيان: يملئ قلبه بالملائكة، ثمّ تزداد عليها ملائكة أخرى، ثمّ تبتعد عنه الشّياطين، فيتنوّر أكثر فأكثر، وكلّما تنوّر إلاّ وامتصّ العلوم من ذات رسول الله ﷺ، ويزيد في ارتقائه وفي تجرّده إلى الله تعالى، فتسقط الدّنيا بالنّسبة له، ثمّ –عافاكم الله- يعمى عن الدّنيا، فلا يراها أصلا، بالرّغم من أنّه حيّ يمشي ويتحرّك، ولكنّه لا يرى لا النّاس ولا الحيطان ولا أيّ شيء من حوله، فيغرق أكثر وأكثر، حتّى يصبح مع الله فقط، فهكذا هم العارفون بالله تعالى، وهكذا هم أشياخنا كلّهم ﵃، تموت الدّنيا بالنّسبة لهم ولا يبقى هنالك شيء إلاّ الله، ثمّ يصحو، وكأنّه بعث من جديد، مات ثمّ أُحيي من جديد بقوّة ربّانيّة ونورانيّة قويّة جدّا، فُيعطي للخلق حقّهم وللحقّ حقّه، فلا يشغله حقّ عن الآخر، أي لا يشغله الحقّ عن الخلق ولا الخلق عن الحقّ، فيصبح في مقام الفناء عن الفناء مع الصّحو التّام، ويصبح كاملا مكمِّلا لغيره، وهو في تمام التّجلّيات الإلهيّة، وهذا هو الّذي يكون قد تطهّر بماء الغيب، وهو الّذي يكون له سرّ

تَطَهَّـــــرْ بِمَـــــاءِ الغَيْـــــبِ إِنْ كُنْـــــتَ ذَا سِـــــرِّ

وَإِلاَّ تَـــــــــيَمَّمْ بِالصَّـــــــــعِيدِ وَبِالصَّـــــــــخْرِ

وَقَـــــدِّمْ إِمَامًـــــا كُنْـــــتَ أَنْـــــتَ إِمَامَـــــهُ

وَصَـــــلِّ صَـــــلاَةَ الفَجْـــــرِ فِـــــي أَوَّلِ العَصْـــــرِ

فَهَـــــذِي صَـــــلاَةُ العَـــــارِفِينَ بِـــــرَبِّهِمْ

فَـــــإِنْ كُنْـــــتَ مِـــــنْهُمْ فَانْضَـــــحِ البَـــــرَّ بِـــــالبَحْرِ

والسرّ أنّك تنزع الغير والغيريّة في كلّ أنفاسك وكلّ حركاتك وسكناتك، لا طاعاتك فقط بل في كلّ أنفاسك، فتكون عبدا لله موصولا بحضرة أشياخك إلى حضرة الله، فكأنّك تراه، تعبد الله في مقام الإحسان حقيقةً، وما دون هذا، يكون اعتقادا أو وهمًا ...

السّارد: ثمّ قال ﷺ للكاتب فقط: وقل له: الدخول، فإذا حالت الرّوح بينك وبين الأعراض دخلت على باب المعرفة الكاملة، وباب المعرفة الكاملة هو تجلّي الأسماء والصّفات، قل له: إشارتي لك هنا ...

البيان: إشارتي لك، أي أنّها مسائل بين سيدي أحمد التّجاني رضي الله عنه وبين رسول الله ﷺ، وسيدي العربي الدمراوي رضي الله عنه إنّما هو واسطة بينهما، فيفرح بهذا التّعظيم والتّشريف من شيخه ونبيّه لا أكثر ولا أقلّ، ولكنّ تلك الإشارة إنّما المقصود بها هو شيخنا ...

السّارد: قل له: إشارتي لك هنا هي مشاهدة جميع العلوم الظّاهرة والباطنة، ومشاهدة جميع الصّفات الّتي ترد منها هذه العلوم المتقدّمة ...

البيان: مشاهدة جميع العلوم الظّاهرة والباطنة، ومشاهدة الصّفات الّتي تبرز منها هذه العلوم، وهي أصل هذه العلوم، وهي الصّفات الإلهيّة، وهذا تبحّر عظيم، لأنّ العارفين ينظرون إلى الأصل، وأمّا نحن فنراها متفرّعة، وكمثال ذلك سيدي الحاج القمار ﷺ إذا ما رفع رأسه ونظر، فإنّ نور بصيرته لا يقف أمامه شيء، وإذا ما نظر هنا، فقد نظر إلى ما قبل الوجود وما بعد الوجود، يكون بذلك قد نظر إلى المخلوقات والأكوان كلّها بنور ربّاني، وليس بنظر عياني، وهي معاينة ربّانيّة بالبصيرة، والبصيرة فيها قرابة الثلاث مائة عين، وكلّ عين أقوى من ألف شمس، تصوّر أن كلّ هذا الكمّ من الشّموس مفتوح في قلب القطب، وسيدي الحاج القمار ﷺ إذا ما رفع نظره وثبّته عليك، فإنّك لا تستطيع أن تنظر إليه، وهذه تعرفونها جيّدا لأنّكم عاشرتموه، وذلك لأنّه ينظر في أصل العلوم، وأصل العلوم هو في الصفات، فيأتي بها من هناك بأذواقها، فإذا نطق بها ﷺ فإنها ترسخ في قلبك كعلم مستقلّ، أي أن كلّ واحدة هي علم مستقلّ بذاته، فسيدي الحاج القمار ﷺ هو مربّي الأقطاب والعارفين الكمّل، فيعطيك ذخائر علوم، كلّ واحدة هي ركيزة مستقلّة عن غيرها، ثمّ تتفتّق في قلبك، ومع حسن الإتّباع، كلّ شيء يبدأ بالتفتّق، لأنّ هذا هو الأصل، ولذا قال: جميع العلوم الظّاهرة والباطنة، وأصلها في الصّفات ...

السّارد: فإذا وصل هذا المعنى دخل على باب تجلّي الذّات، وارتفع عنه حجابها نزل الحقّ بالحقّ، فيكون صاحب هذا التّجلّي محجوبا عن جميع الموجودات ...

البيان: فصاحب هذا التّجلّي –الّذي هو في بداية تجلّي الذّات وليس في نهايته– تموت عنده الأكوان، فيكلّمها ويخاطبها ويراها ويأكل معها ويشرب، ولكنّه في حقيقة الأمر لا يراها، فهي دنيا فارغة من كلّ شيء بالنّسبة له، وهذا يعرفه من ذاقه ومن هو فيه، وهو بداية المقامات، أي بداية تجلّي الذّات، وأمّا ما بعد هذا فهو أصعب، لكنّ ذلك يبقى مقاما عاليا جدّا في المعرفة بالله تعالى، وهو أن يموت كلّ شيء عنده ...

السّارد: وجميع الموجودات محجوبة عنه ...

البيان: وهو كذلك محجوب عن جميع الموجودات ...

السّارد: قل له: مشاهدة الحقّ فناء، ولا يكون ينطق في حالة التّجلّي إلاّ بالحقّ

البيان: وهذا لبّ الموضوع، فصاحب هذا التّجلّي –إذا أصبح يتكلّم بالإذن– فإنّه لا يتكلّم إلاّ بالله ﷻ وبلسان رسول الله ﷺ، ويكون لسان القطب تحت لسانه إن لم يكن هو القطب بذاته، وألسنة الوسائط كلّها بلسان واحد تحت لسانه، وإنّما هو لسان الرّبوبيّة، يتكلّم بالرّبوبيّة، فإذا ما قال "قلتُ" فالربوبيّة هي الّتي تدرّس النّاس وتعلّمهم وما إلى ذلك ...

السّارد: فانظر ما أوسع هذا الباب ...

البيان: هذا رسول الله ﷺ يتكلّم، فتمعّنوا جيّدا في ما يقول، "ما أوسع هذا الباب"، والمراد منه: تأمّل الرحمة الإلهيّة ما أوسعها.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

# الأنبياء والأولياء

درس من كتاب "جواهر المعاني":

البيان: السؤال المطروح حول إمكانيّة زيادة علم غير الأنبياء بالمقارنة مع الأنبياء، فمن لم يكن نبيّا، هل يمكن أن يعطيه الله ﷻ من العلم ما يفوق به، أو ما يتوسّع به، عن العلم الّذي أعطاه للنّبيّ أو للرّسول؟، فهذا سؤال على كلّ حال، ومن هذا السّؤال يمكنك أن ترى ما هي المعرفة بالله تعالى، فالمعرفة بالله تعالى هي أنّ كلّ شيء جائز، يفعل المالك في ملكه ما يشاء، هذه هي المعرفة بالله، أن يكون كلّ شيء جائزا وممكنا، فغاية ما يدركه الإنسان أنّ المالك يفعل في ملكه ما يشاء، فلا تستطيع أن تقول "كيف" ولا "لماذا" ...

السّارد: الجواب والله أعلم أنّ زيادة غير الأنبياء في العلم جائز في نفس الأمر، لا إحالة فيه ولا يُزري ذلك بمرتبة النّبيّ ...

البيان: ولا يُزري ذلك بمرتبة النّبيّ، أي ولا يُنقِص ذلك من مرتبة النّبيّ، وهذه هي المعرفة بالله تعالى، فالنّبيّ مرتبته أعلى من جميع الأولياء، ويجوز أن يكون الوليّ له علم وله معرفة لا يكونان عند النّبيّ، وإذا تفضّل الله على أحد عبيده بعلمٍ أو بزيادة علمٍ في موضع مّا على النّبيّ، فليس هذا بدالّ على نقصان مرتبة النبيّ بالنّسبة لهذا الوليّ، وهذه معرفة عظيمة بالله تعالى، لأنّ جلّ النّاس لهم فكر مسلّط على مقارنة الأشياء في ما بينها، فلم يخرجوا إلى فسحة واتّساع البحر الإلهيّ في المعرفة بالله

تعالى، فتظلّ عقولهم محصورة ومرتبطة بأنماط معيّنة من الفكر، فيظلّون مقيّدين بها ...

فقير: فما بالك سيّدي لو كانت المقارنة بين وليّ ووليّ آخر ...

البيان: هذا النّوع من المقارنات لا يجوز، فلا تجوز مقارنة حقيقة بحقيقة مثلها، ولذا قال ﷺ: "**لا تُفضِّلوني على يونسَ فإنه كان يُرْفَعُ له كلَّ يومٍ مثلَ عملِ أهلِ الأرضِ**"[44]، وأمّا أفضليّته ﷺ فهي ظاهرة لا شكّ فيها، ولكنّه ﷺ يرينا أنّه يجب علينا أن لا نقارن بين الحقائق أو نفاضل بينها إلاّ بالشّرع، ولذا قال الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[45]، وقال ﷻ: ﴿**رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[46]، وكذلك ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[47]، فكلّ ما فضّله به الشّرع فقد فاضل به بينه ﷺ وبين الأنبياء تفاضلا، لم يحكم به هو، ﷺ، ولا غيره، وإنّما حَكَمَ به الشّرع، وأمّا نحن فلا يجوز أن نفضّل أو نقارن أحدا بأحد قطّ، وإنّما نكنّ التّعظيم الكامل لجميع الأولياء والمرسلين والأنبياء، وعوضا عن كلّ هذا، يجب على الإنسان أن يكون متوجّها إلى طاعة الله ﷻ، ومحبّته ومعرفته، وهذه هي المعرفة، فهنا يقف النّاس جميعا، إذ قيل: إذا كانت الحقيقة المحمّديّة هي الّتي خلقها الله في أوّل ما خَلَقَ، فأين هو المكان الّذي وضعها فيه؟، فهذا المكان خُلق قبلها، وإذًا لم تعد هي الأولى من حيث الخَلقِ، وقيل: قد يكون الله ﷻ خلقهما معًا، أي الحقيقة المحمّديّة والمكان الّذي وُضعت فيه، إذًا لم تعد الأولى لوحدها، من حيث أنّ الأوليّة لا تكون إلاّ لواحد، بل أصبحت الأوّليّة لهما معا، حتّى جاء الشّيخ ﷺ بالجواب عن هذه المسألة فقال: الحقيقة المحمّديّة لها الأولويّة والأوّليّة التّامة على جميع ما خلق الله ﷻ وعلى جميع ما برز من حضرة الحقّ ﷻ، وقد وضعها في غير مكان،

[44] الراوي: - المحدث: ابن حجر العسقلاني - المصدر: الكافي الشاف - الصفحة أو الرقم: 65
[45] سورة القلم الآية 4.
[46] سورة الأحزاب الآية 40.
[47] سورة يـس الأية 3.

في غير محلّ، فاحصروا فضل الله إن استطعتم، وهذه هي المعرفة بالله تعالى، وهذا ما يفتح لك أبواب المعرفة، وهذا ما معناه "معرفة"، فإذا الفكر البشريّ خرج من بحر الضِّيقِ ومن بحر التّقليد الأعمى ومن بحر الأفكار الضيّقة إلى بحر المعرفة بالله ﷻ، فيصبح قابلا لهذه الفهوم، والمعرفة إنّما هي اتّساع الفهم في الشريعة ...

فقير: سيدي، هل يجوز القول أنّ الحقيقة المحمّديّة خلقت بلا أوّليّة، أي خلقت من القدم ...

البيان: ربّما تجد الجواب عن هذا في الجواهر، وهذا كلام خطير بعض الشّيء، لأنّه يوحي بأنّها من الرّبوبيّة، فإذا قلنا بهذا، فنحن نقول إذًا أنّ الحقيقة المحمّديّة ليس لها أوّليّة، إذًا هي كائنة حيث ما كان الله كائنا ﷻ، بلا أوليّة ولا آخريّة، إذًا كأنّها أصبحت من الذّات، وهذا لا يقول به أحد، إنّما هي مخلوقة حادثة، وإن دام قدمها، وإن كان قديمًا قِدَمُها، وإن كانت أزليّة، لكنّ الشبهة في أنّها ملازمة لوجود الحقّ ﷻ لابدّ وأن تزاح، فبأيّ صفة كانت فهي تنقل من مراتب الحقّ ﷻ إلى مراتب أخرى، كمرتبة الوحدة ومرتبة الواحديّة، وتبقى الأحدية هي الذّات السّاذج الصّرف، عمى في عمى، ولا يُشمّ فيها رائحة الغير جملة وتفصيلا فضلا على أن يُتعقّل، وإذا كان الحقّ ﷻ في مرتبة الواحديّة عمى طمس، ففي مرتبة الوحدة ظهرت الحقيقة المحمّديّة، والله أعلم

السّارد: إلاّ أنّ هناك فرقا إمّا في العلم بالله وصفاته وأسماءه ...

البيان: وأمّا العلم بالله أو المعرفة بالله، فلا يكون غير النبيّ عالما بالله أكثر من الأنبياء والرسل أبدا، لأنّ النبيّ أو الرسول له الأسبقيّة في المعرفة التّامة بالله، بأسمائه وصفاته إلخ، والله أعلم ...

السّارد: إمّا في العلم بالله وصفاته وأسماءه وتجلّياته وما تشتمل عليه من المنح والمواهب والفيوض فلا مطمع لغير النبيّ أن يزيد على النبيّ في هذا الميدان ...

البيان: الحمد لله، لا مطمع لغير النبيّ أن يزيد على النبيّ في هذا الميدان، لأنّ النبيّ أو الرسول في هذا الميدان هو عارف كامل المعرفة بالله ﷻ بأسمائه وصفاته، ولا يتأتّى أن يكون وليّ له نفس المعرفة مع النبيّ أو لأصبح له نفس المرتبة من التّوحيد معه، فيصبح هو في حدّ ذاته نبيّا ...

فقير: سيدي، هل يمكن أن يكون هذا هو ما فضّلهم على الأولياء ...

البيان: نعم، وهو التّوحيد، أي إلمامهم بمعرفة واسعة، وهي مرتبة معرفة بالله تعالى تتلخّص في كون النبيّ منذ كان في بطن أمّه وهو عارف كامل المعرفة بالله ﷻ، وهذا هو شأن جميع الأنبياء والرّسل، ولهذا لا يكون النبيّ أو الرّسول كغيره من النّاس، وهو التّوحيد الخالص، لا تشوبه في المعرفة بالله غفلة ولو لطرفة عين عن الله تعالى، وذلك منذ البروز من بطن أمّه، وهذا مع جميع الأنبياء، وهذا أمر عظيم، وأين الوليّ من هذا، يلعب ويلهو ومن ثمّ يستقيم إلخ، وحاشى لله أن يكون هذا مع الأولياء الأكابر من الأقطاب والأغواث ...

السّارد: فإنّ النبوّة أكبر علما وأوسع دائرة وأعظم إدراكا في ما ذكرنا إذ لو كان غير النّبيّ في هذا الميدان يلحق درجة النبيّ أو يزيد عليه لساواه في الفضل ...

البيان: يساويه في الفضل أي يصبح هو نفسه نبيّا ...

السّارد: لساواه في الفضل أو كان أفضل منه وأمّا في ما دون تلك المرتبة من العلم بمراتب الكون وما يقع فيه جملة وتفصيلا ...

البيان: وإن شئت فأكثر من ذلك، فمراتب الكون وما يقع فيه جملة وتفصيلا وما غُيِّب عن النّاس إلخ، فالنّبيّ أو الرّسول قد كُلِّف بشيء خاص، وأمّا قلبه فهو دائما في الملكوت والجبروت الرّبّاني والمعرفة التّامة بالله تعالى، وأمّا تكليفه فقد كُلِّف بأشياء خاصّة في زمانه مع قوم مخصوصين وأناس مخصوصين إلخ، وأمّ الوليّ فيطّلع على المغيّبات، واطلاعه ذاك ليس المعرفةَ التّامةَ بالله تعالى من ذات الوجه الّذي يكون للنّبيّ أو الرّسول، هذا لا يكون ...

السّارد: وأمّا في ما دون تلك المرتبة من العلم بمراتب الكون وما يقع فيه جملة وتفصيلا وتقلّبات أطواره وانكشاف ما سيقع فيه في المستقبل قبل وقته وهو كشف الغيوب الكونيّة فإنّ غير النبيّ قد يزيد ...

البيان: قد يزيد وقد لا يزيد، أي أنّ الوليّ قد يزيد معرفة على النبيّ لأنّ هذه المعرفة إنّما هي متعلّقة بـ"الأصغر" وهو "الكون"، لذلك يجوز أن يكون له معرفة أوسع وأكبر من النبيّ، لأنّ هذه المعرفة ليست متعلّقة بـ"الكبير" الّذي هو "الله"، ولذلك كان الخِضْر في الحقبة الزمنيّة له معرفة أوسع من سيّدنا موسى عليه السلام في أمور الدنيا، وإن تعلّقت بالآخرة كذلك، فهي ليست بالمعرفة بالله تعالى، هي أمور تصريف لا غير، وهو يتصرّف من تحت دائرة النبيّ أو الرسول الّذي هو قطب زمانه ...

فقير: سيدي، سيّدنا موسى عليه السلام، ألم يكن يعلم وقتها أنّه وليّ؟ ...

البيان: سيّدنا موسى عليه السلام أُعطي بعد ذلك علم الباطن، فقد أعطاه الله كلّ شيء، وهكذا سمعتها من الشّيخ سيدي محمّد القمار رضي الله عنه، لكن حين اجتماع سيّدنا موسى عليه السلام بالخِضْر فإنّه مازال مع الأحكام الشرعيّة لا غير، ثمّ أكمل الله له بعد ذلك جميع الأمور الباطنيّة، أو أذن له أن يظهر الباقي ويتصرّف به، وأمّا هو

فتامّ المعرفة بالله تعالى في جميع أطواره، لا يغفل عنه طرفة عين أبدا، وشتّان ما بين من هو هذا حاله وبين غيره ...

السّارد: فإنّ غير النبيّ قد يزيد على النّبيّ في هذا الميدان وهي قضيّة الخِضر بعينها

البيان: وهي قضيّة الخِضر بعينها، والدّليل على هذا سورة الكهف ...

السّارد: وحقيقة ذلك أنّ بصائر النبيّين والمرسلين أبدا تنظر إلى جناب الحقّ...

البيان: أبدا، أبدا، أبدا، والبصائر هي جمع بصيرة وهي عيون القلب، والشّيخ الأحسن البعقيلي ﷺ قال أنّها، والله أعلم، ثلاث مائة وستّة وستّون عينا باصرة أو بصيرة في القلب، وكلّ عين منها إذا انفتحت هي أقوى وأعظم من ألف شمسٍ من شمسِ دنيانا، فانظر إذا كان هذا الوليّ قد فُتح له في المعرفة بالله ﷻ عين واحدة، فإنّه لا يستطيع أن يصل إليه غيره ممّن دونه في المعرفة، فإذا فُتحت كلّها فهذا أمر عجيب جدّا، ورهيب جدّا، وخطير جدّا، في المعرفة بالله تعالى، وقوله ﷺ: وحقيقة ذلك أنّ بصائر النبيّين والمرسلين أبدا تنظر إلى جناب الحقّ، فالمراد منه أنّ البصائر والعيون البصيرة التّي لدى الأنبياء هي أبدا تنظر إلى حضرة الحقّ ﷻ، وهذا ليس منذ بروزهم من بطون أمّهاتهم وإنّما هي أبدا أزلا، وذلك من النّور المقتطع من نور الحقيقة المحمّديّة، وهو نائب عن الحقيقة المحمّديّة في تبيين شرع الله ﷻ وفي غرس الإيمان في تلك الأمم، فيسمَّون إذا ما برزوا وكلّفوا بالأنبياء والرّسل، وفي الحقيقة هم منذ كانوا في الحقيقة المحمّديّة ساجدون حامدون راكعون هائمون في حضرة الحقّ ﷻ، يقابلونه ببصائرهم وبباطنهم ولا يغفلون عنه طرفة عين أبد الآبدين، منذ

خلقهم الله ﷻ، وهذا شأن جميع الأنبياء والرّسل الّذين هم من نور النبوّة، ﷺ، ثمّ قال ...

السّارد: أبدا تنظر إلى جناب الحقّ شديدة العكوف والدؤوب عليه ...

البيان: شديدة العكوف والدؤوب عليه، ودأب على الشّيء وعكف عليه أي أنّه قصّر كلّه وجزئه على هذا الشيء فلا ينظر إلى سواه ولا يعقل سواه ولا يعلم سواه، دائما وهو متوجّه إلى الحقّ ...

السّارد: فقلوبهم أبدا تنظر إلى الظّاهر لا التفات لها إلى الأكوان ...

البيان: لا التفات لها إلى الأكوان أبدا لأنّ هذه هي مرتبتهم ...

السّارد: وكأنّ شدّة نظرها إلى الله أبدا مشتغلة بتجلّياته ...

البيان: مشتغلون بتجلّيات الله فقط، لا بأمور الدنيا، فهم ميّتون عنها، وهم ميّتون عن غير الله، فهذه حقيقة حالهم ومقامهم، ميّتون عن غير الله ولا يرون غيره أبد الآبدين، إذًا هم أجساد تمشي وتأكل الطعام وتجول في الأسواق وتربّي النّاس وتعلّمهم، لكنّ حقيقتهم أنّهم كلّهم مجذوبون جذبا كلّيا إلى حضرة الله ﷻ لا يرون غيره، ولا يعرفون غيره، ولا يعلمون غيره، ولا يحسّون بغيره، فهم منطمسون في وسط الحضرة الإلهيّة، ولولا أنّ الله ﷻ أمرهم بأن يتوجّهوا إلى الخلق لما توجّهوا إليهم أبدا، ومع ذلك تتوجّه ظواهرهم وألسنتهم وما كلّفوا به، وأمّا حقائقهم الأصليّة فمتوجّهة إلى الله، وعاكفة على النّظر إلى حضرة الحقّ ﷻ، وعاكفة كذلك على تلقّي ما يصدر من تجلّياتٍ منها، والتّجلّيات هي ما يبرز من حضرة الحقّ فيقابلونها بما يجب من العبوديّة، ولماذا يتّبعون؟ إنّما هم ينتظرون أيّ إشارة من الحقّ فيقابلونها بالعبوديّة، فهم عبيد حقيقيّون لله، ومن هنا كان العارفون بالله تعالى على هذه الوتيرة، وخاصّة إذا ما رسخوا جيّدا، فإنّهم يكونون على هذا المنوال، فيتحيّر

النّاس فيهم، بينما هم غرقى في محبّة الحقّ ﷻ، لا يرون غيره، وكلّ من كان من الأكابر إلاّ وكان هذا شأنه ...

السّارد: مشتغلة بتجلّياته لا تتلمّح بطرفها لغيره ...

البيان: مشتغلة بتجلّياته، أي منتظرة ومترقّبة لها في كلّ نفس من أنفاسها لا تلتفت إلى أحد أبدا، وتترقبّ هذه الإشارات من قبيل افعل، لا تفعل، ابتعد، اقترب، تعبّد، إلخ، ومن هنا كان أقلّ مقام عند العارفين هو المراقبة، أي أنّ الفقراء يراقبون الحقّ وما يصدر منه ﷻ، فيؤدّون ما يجب من العبوديّة طبقا لتلك التّجلّيات، وطبقا لذلك الظهور الّذي ظهر لهم، فإنّهم يسمعون بالله ويأكلون بالله ويمشون بالله، وجميع أحوالهم إنّما هي بالله ولله وفي الله، ومن هنا يسمَّون عارفين بالله تعالى، وتصعب معرفتهم وتصعب صحبتهم ويكون ما يكون، ثمّ قال ...

السّارد: فكلّ واحد منهم لا همّة له ولا عناية إلاّ بما يبرز من الحضرة الإلهيّة في كلّ حين وأوان من التّجلّيات والمنح والموارد والواردات وكلّ ما ذكرنا من الآداب ووظائف الخدمة لا تفتر عن ذلك حتّى لحظة واحدة ...

البيان: ولا للحظة واحدة، ولهذا قال له في ما معناه: لو غفلت عنّي طرفة عين لمتَّ على سوء الخاتمة، وهذا أمر خطير، والعارفون الكمّال كلّهم هكذا، فإذا رأيت مثلا سيدي الحاج محمّد القماري ﷺ، أو سيدي الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ، أو الشّيخ الجكاني ﷺ، فهم على هذه الوتيرة، لا يغفلون طرفة عين، كما هو حال سيدي محمّد الكبير البعقيلي ﷺ كذلك، فهذا هو دأبهم، فهم قد خُلعت عليهم خلعة واحدة، وجذبوا جذبة واحدة، وكلّيا، إذ يُدفعون إلى الحضرة الإلهيّة دفعة واحدة، وكما قال الشّيخ ﷺ وأرضاه في ما معناه: دُفعت إلى الحضرة الإلهيّة وأنا يافع، دفعة واحدة، فصار أوّلي آخري وآخري أوّلي، وكلّي جزئي وجزئي كلّي،

وصرت أنا من حيث هو وصرت هو من حيث أنا، فلو سئلت في ذلك الوقت وذلك الحال على ألف ألف مسألة من أعوص وأصعب المسائل لأجبتُ عنها بجواب واحد، حيث صرتُ كالمصباح، يضيء ما حوله، فهذا مقامه ﷺ

السّارد: فلأجل هذا الاستغراق لا يلتفتون إلى الأكوان ...

البيان: وها قد سمّاه "الاستغراق"، مِن غرِق يغرَق غرَقًا، والاستغراق إنّما فيه دوام فعل الغَرَق، ومواصلة الفعل بالفعل، أي هو نفسه، فالمستغرق في الشيء معناه أنّه لا يلتفت عنه ولا ينفكّ عنه ولا يتحوّل عنه ولا يتفكّر في غيره، فهو مستغرق في ذلك الأمر ...

السّارد: لا يلتفتون إلى الأكوان ولا يعلمون ما وقع فيها وأعظم من ذلك الاشتغال بمحادثة الحقّ لهم في حضرة قدسه ...

البيان: وهم المحدَّثون، فهنالك أناس محدَّثون من حضرة القدس، ولذا كما قال الإمام الشاذلي ﷺ، وعن شيخنا أفضل الرّضا، في ما معناه: كنت في أوّل الأمر أطلب كلام القوم، أي الصّوفيّة، يبحث عن كلامهم ومعانيهم ليتعلّمها، حتّى قال له الحقّ ﷻ: أنا أعلّمك ما هو خير من هذه العلوم كلّها، وهو القرآن والسنّة والشّرع، وهي طريقتنا المثلى، وهو التّوحيد الخالص لله، فإذا علمت أنّ الله واحد في صفاته وأسماءه وذاته، وفاعلٌ لا فاعلَ معه، وإذا علمتَ أنّك المقصود منك أن تكون عبدًا لله ذليلا له، فقد وصلت نهاية التّوحيد، وهذا ما درّسه لنا سيدي محمّد القمار ﷺ، وهو نهاية التّوحيد، وليس هنالك ما هو أعلى من هذا، وهو كلام جدّ بسيط، فمن اتّبعه وفهمه وقصّر همّته عليه فقد ربح، عليك بوردك وعبادة ربّك، وحافظ على هذا النَّفَس، ومن أراد غير ذلك، فذلك حظّه ولا نصيب له في أكثر من ذلك، ولا نستطيع معه شيئا، إنّما نحن نذكّر بها النَّفَس ومتشبّثون به جيّدا

وندّرسه للنّاس، ونتنفّس به، ونتنفّس في إخواننا فيه وهم كذلك يتنفّسون فينا، وهكذا دواليك، حتّى نلقى الله على ما يشاء ﷻ، فقط

السّارد: فلا شكّ أنّ من ذاق ذلك فلا يقدر أن يلتفت إلى غير الله تعالى حتّى لحظة واحدة فلأجل هذا لا يعلمون ما وقع في الكون ولا ما تقلّب فيه لاشتغالهم عنه بالله تعالى وغير الأنبياء لا طاقة لهم على الدّوام على هذا ...

البيان: الدّوام، والاستغراق، فلا طاقة لهم على الاستغراق، فيلتفت قليلا هنا وقليلا هنا، ليروّح عن نفسه، ثمّ يرجع إلى ما كان عليه، فلا طاقة لهم على الاستغراق لأنّ هذا الاستغراق يضرّ، ولذا تجد الوليّ العارف بالله يحبّ أن يجد بجانبه من يهذي هذيانا يروّح عنه ممّا به، وإلاّ فإنّه يتضرّر، وهذا هو الفرق بين قوّة التّجلّيات وقوّة الأنوار وقوّة الحضور في الحضرة الإلهيّة، ومقابلة كلّ هذا بالعبوديّة قد يحترق معه الوليّ، فإذا استغرق فيه أكثر من اللاّزم فإنّه قد يهلك، وهذا هو معنى الاصطلاء، وهو هذا الحال، وهو الهلاك، أي أن يستغرق في محبّة الله ويؤدّي الحقوق الإلهيّة في كلّ طرفة عين وكلّ لحظة، فلو دام على هذا الحال لهلك ...

السّارد: إنّما لهم فيه أحوال تارة وتارة.

بحمد الله.